الذكرى

عدد خاص بمناسبة ذكرى استشهاد الإمام زيد صادر عن الملتقى الإسلامي

الأفتتاحية

مرهق هو استماع أنَّات المحرومين والمعذبين، ومكلف هو النظر إلى عبث المنحرفين والمحرفين للدين والقيم والشرائع، وبالغ الحسرة والألم النظر إلى أعلى هرم السلطة في الدولة الإسلامية والقردة والخنازير تنزوا عليه، ومن أجل هذا يتنافس أحرار الإنسانية وصفوة الصفوة، وحملة القضية، ورواد العدالة إلى إسكات تلك الأنات، وتقليص فاتورة تلك الكلفة، وزحزحة تلك التخمة عن كاهل الأمة كلما دعاهم الواجب، وناداهم الواقع، واستنجد بهم الوجود.

ومن هنا نستطيع أن نضع أقدامنا على الطريق المستقيم، وأن نمسك بأيدي بعضنا في الخط الصحيح، ونحن نعبر في رحلة أمَّمَت بوجهها صوبَ قبلة التضحيات الأفخم، وإمام الأحرار الأعظم، ورائد العدالة الأول، وملهم النهج الأقوم «زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب» عليهم جميعاً أزكى السلام وأعبق الصلوات.

لقد حمل الإمام زيد عليه السلام بين جنبيه نفساً مترعة بالآلام والأسى، وروحاً معذبة بما يعانيه المجتمع الإسلامي من جور وطغيان، فقد رأى باطلاً يحيى، وصدقاً يُكَذَّب، وأثرة بغير تقى، وشاهد جوراً شاملاً، واستبداداً عاماً، فلم يسعه أن يسكن أو يسكت، فاضطلع الإمام زيد (ع) مقاوماً كل ذلك الانحراف بوحي من عقيدته التي تمثل روح الإسلام وأصالته، مضحياً بكل غالي ونفيس، باذلاً نفسه لله تعالى وفي سبيل الحفاظ على تعاليمه ودينه.

إنَّ زيد بن علي عليهما السلام لم يكن مشروع شهادة وحسب، بل كان منهجاً وقيماً، فلم يضحي بنفسه حتى ملأ الدنيا علماً وفكراً، وفتح للمسلمين آفاقاً من الوعي والبصيرة والمعرفة والدين في مختلف المجالات الإسلامية، والعلوم الإنسانية، وهو أول من جمع السنة النبوية، وألف في الفقه، وأصل للعقيدة، وبنظرته وبفكره قدَّم مشروعاً حقيقياً للوحدة الإسلامية، ووضع منهجاً مهيعاً للسعادة الإنسانية، وغرز في قلب الجهل خنجر العلم، واستأصل بمعول المعرفة ساق الجاهلية، وفتح باباً للاجتهاد، ونافذة للنور إلى ما شاء الله.

ذلك هو زيد بن علي حليف القرآن، والذي نحاول في مجلتنا المتواضعة هذه أن نقدم صورة عنه، وهي بالتأكيد لا تفي بمقامه، ولا تقوم بحقه، ولكنها بوابة لمحبيه وأتباعه، وفاتحة للباحثين والمهتمين للعمل على إبراز جوانب شخصيته العظيمة، من المولد الشريف إلى الشهادة المباركة، ومن عكوفه على القرآن إلى الصلب على خشبة كوفان.

وهي دعوة صادقة لحملة الفكر ورواد العلم ومشاعل التنوير في مختلف الأقطار الإسلامية إلى إعطاء زيد بن علي عليهما السلام -شخصاً وفكراً- حقَّه من الدراسة والبحث؛ فإن الأمة أحوج ما تكون إلى زيد بن علي في جِدِّه واجتهاده وعلمه وجهاده، وخاصة وهي تعيش حالة من الجهل والانحراف والتفرق والتمزق تدمى لها عين كل غيور، ويتألم عليها كل مؤمن.

وختاماً: نتقدم بالاعتذار البالغ لمقام الإمام زيد (ع) أولاً، وقرائنا الأعزاء ثانياً؛ فإننا لم نستطيع أن نعطي إمامنا الأعظم حقه، ولم يسعفنا الجهد والوقت والحظ في أن نقدمه كما ينبغي، ولكننا قد بذلنا جهودنا، واستفرغنا طاقاتنا في تقديم صورة ولو جزئية عنه، سائلين من الله جل وعلا الأجر وأن يجعل هذا العمل شفيعاً لنا يوم القيامة بجاه محمد وآله الطاهرين صلوات الله عليهم وسلامه.

محراب العلم ومعراج الشهادة

(العلم والجهاد) متلازمتان لا تنفقان وقضيتان لا تنفصلان، وهما الحارسان الأمينان على الدين والإسلام، فبالعلم تحفظ الشرائع والأحكام من تحريف الجاهلين وتزييف الغالين، وبالجهاد تحرس وتطبق وتصان من عبث العابثين وظلم الجائرين، ولقد ارتبط العلم والجهاد بالإمام زيد وفكره حتى صارا بمثابة العَلَم الذي يعرف به الإمام زيد، ويميز فكره عن الأفكار السائدة في الوسط الإسلامي.

وكل من يكتب عن الإمام زيد أو يبحث في سيرته أو يطالع قصته يجده في الجهاد، ويجده في الاجتهاد، ويلتقي به في المعرفة والعلم والدرس، ويقابله في الجلاد والبطولة والاستشهاد، صورة كاملة لم يخدشها النقص، ومسيرة متكاملة لم يقصر بها العجز.

ولو كان زيد مجاهداً فارغاً من العلم لقدم للبشرية مشروعاً عشوائياً، وظلماً لا متناهياً، وإسرافاً في الدماء والأرواح لا حدَّ له!

ولو كان زيد عالماً متنسكاً لصنع أمة ينخر فيها الظلم، ويعصف بها الطغيان، قد يئست من دين لا يحمي كيانها، وتبرأت من منهج لا يصون بقاءها عاجزٍ عن حماية نفسه فضلاً عن حماية حامليه.

فهذا هو زيد بن علي كلٌ متكامل وكيان كامل، من المصحف الشريف إلى سهم الجبين، ومن محراب العلم إلى معراج الشهادة، ومن يحاول أن يقدم الإمام زيداً عليه السلام بغير تلك الصورة الكاملة فقد جنى على الحقيقة وأخطأ المعرفة.

جنود الله في الأرض

عجيب صنيعك يا أبا الحسين؛ كيف أحييت من الدماء موات البقاع، وأنبتَّ من الجرح الدامي جنات العباد، وبعثت برماد جسدك السامي غفلة الفؤاد، وألقيت من علو جذعك العالي للعالمين سبل الرشاد.

قمت على حين فترة من الهدى، ونهضت في وقت غفلة عن التقى، وجئت من رحم النبوة؛ لتشعل مصابيح الدنا، وكأنك عهد الله الذي أودعه في حبيبه ورسوله، وسره الذي حفظ به الذكر المبين، وخليفته الذي عمرت به الأرضون، وأساسه الذي قام عليه سوح الدين.

فجعلتَ في سبيل القضية والمبدأ علامةَ الحب فينا عناقَ الحتوف، ولحظات الوصل التحاف السيوف، وعلمتنا أن نبذل في سبيل صلاح الأمة مهج النفوس، وأن نذوق في سبيل العدالة ضيق الحبوس.

فإذا كان في الرواية أنك وأنصارك جنود الله في أرضه، ففي الواقع تجليات تلك الحقيقة ومصداق تلك الرواية، ومن سواك فتح باب التضحية بعد رصده، وشيد ركن الاجتهاد بعد هدمه، وأقام موضحات الحق بعد غمطه؟!

فيا جنود الله في الكناسة وباخمرا وفخ، ويا جنود الله في الديلم واليمن وفاس، ويا هباته في الجوزجان وطبرستان وكوفان، ويا نزلاء مطبق الهاشمية وفيكم الكامل والعابد وطباطبا، ويا أولي التضحية في مواقف البلاء، أنتم رعاة الحق وحماته وبكم يضرب الله في أرضه أعداءه، أقضتم مضاجع الظالمين في كل عصر وزلزلتم عروشهم في كل مصر، وكنتم قيامتهم الموعودة، فندبوكم وبكوا منكم وضجوا وصرخوا والله ما أعدائنا إلا الزيدية التي كلما قتلنا منهم قائم قام آخر، كنتم كذلك وهذا ميراثكم وهذا ما خلفه لكم إمامكم فاحفظوا ميراثه.

الأمام زيد إمام الأئمة

قصة هي أشبه بسير الأنبياء، وسيرة هي أعذب من لحن السماء، وسريرة هي أنقى من صفاء الماء. عندها تستقر الفضيلة، وبها يلتقي الطهر والكمال؛ قصة من كتاب الخالدين تتسلل إلى آذان العالمين في كل زمان، ونور من ضياء المستبصرين يشرق على الأرض في كل حين، ينشده الأحرار لاجتثاث الظلم، ويقصده الثوار لاستقاء الهمم، ويطلبه السالكون للسير على طريق الحق.

تلك قصة الإمام الشهيد الأعظم زيد بن علي عليهما السلام، حليف القرآن، وسليل النبوة. وتلك سيرة العطاء والتضحية من الولادة إلى الشهادة.

تبشير النبي به وعزاؤه فيه

كان للإمام زيد عليه السلام حضور في حديث النبي المصطفى صلوات الله عليه و آله وسلم، وتبشير وعزاء في نفس الوقت؛ من ذلك ما روي عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه نظر يوما إلى زيد بن حارثة، فبكى وقال: ((المقتول في الله المصلوب من أمتي المظلوم من أهل بيتي سمي هذا)) وأشار إلى زيد بن حارثة، ثم قال: ((أدن مني يا زيد زادك اسمك عندي حباً فإنك سمي الحبيب من ولدي زيد)).[الإمام المرشد بالله، الأمالي الاثنينية ج١/ ص٥٥٤] ابن عساكر، تأريخ دمشق ج١٩/ ص٤٥٨] المتقي الهندي، كنز العمال ج١٣/ ص٣٩٨]

وفي حديث آخر يبشر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الإمام زيداً وأصحابه بالنجاة يوم القيامة؛ لعظمة ما تحمَّلوه من مسئولية في سبيل الله، فروى الإمام الباقر محمد بن علي عليهما السلام، عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم، أنه قال للحسين: ((يخرج من صلبك رجل يقال له: زيد، يتخطى هو وأصحابه يوم القيامة رقاب الناس غراً محجلين، يدخلون الجنة أجمعين بغير حساب)).[الإمام الموفق بالله، الاعتبار ص٣٩١] أبو الفرج الأصفهاني، مقاتل الطالبيين ج١/ ص١٠٤]

الإمام زيد على لسان الوصي

خطب أمير المؤمنين عليه السلام على منبر الكوفة، فذكر أشياء وفتناً، حتى قال: ((ثم يملك هشام تسع عشرة سنة، وتواريه أرض رصافة، رصفت عليه النار، مالي ولهشام جبار عنيد، قاتل ولدي الطيب المطيب، لا تأخذه رأفة ولا رحمة، يصلب ولدي بكناسة الكوفة، (زيد) في الذروة الكبرى من الدرجات العلى، فإن يقتل زيد، فعلى سنة أبيه، ثم الوليد فرعون خبيث، شقي غير سعيد، يا له من مخلوع قتيل، فاسقها وليد، وكافرها يزيد، وطاغوتها أزيرق.. إلى آخر كلامه). [الإمام المنصور بالله، الشافي، ج١/ ص٤٠٠]

أمّ الإمام زيد «جيدا»

(جيدا) هي أمُّ الإمام زيد عليه السلام، وهي أَمَة سندية اشتراها المختار بن أبي عبيد، فوجدها ذات دين وخُلُق، وعَرَفَ فيها الأدب والحياء، فقال: ما أرى أحداً أولى بها من علي بن الحسين، فبعث بها إلى علي بن الحسين، فخَيَّرها بين أبنائه، فذكرت أنها لا تريد إلا زين العابدين، فَخَصَّ بها نفسه سلام الله عليه.

ولأن أمَّ الإمام زيد عليه السلام كانت أَمَةً، فقد عيره بها الطاغية هشام بن عبدالملك حين دخل عليه بقوله: أنت زيد المؤمل للخلافة، ما أنت والخلافة وأنت ابن أَمَة؟!

وكانت هذه هي السخافات التي كان هشام يجيدها، غمط للفضائل، وتفاخرٌ بالآباء والأمهات على حساب العمل والالتزام؛ لقد تصور ذلك المخدوع أن خروج إنسان ما من رحم ما يكسوه قداسة ويغمره فضلاً وطهارة من دون عمل واجتهاد؛ فما كان من الإمام زيد عليه السلام إلا أن وقف أمام هذا الطاغية؛ ليبين له أن هذه الأفكار من مخلفات الجاهلية التي جاء الإسلام ليسحقها، فقال له: ((يا هشام، إن الأمهات لا يقعدن بالرجال عن الغايات، ولا أعرف أحداً أحب عند اللهِ من نبي بعثه وهو ابن أَمَة، وهو إسماعيل بن إبراهيم، والنبوة أعظم عند الله من الخلافة، ثم لم يمنع ذلك أن جعله الله تعالى أباً للعرب، وأباً لخير النبيين محمد صلى الله عليه وآله وسلم، فلو كانت الأمهات تقصر عن حتم الغايات لم يبعثه الله نبياً)).

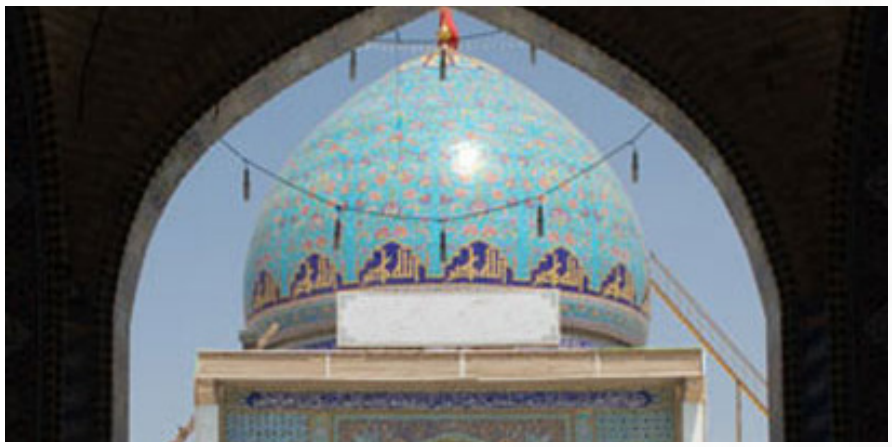

مولده المبارك

بينما كان زين العابدين علي بن الحسين عليهما السلام في أوراده وأدعيته المعتادة بعد صلاة الفجر ينتظر طلوع الشمس ليوم جديد، إذ أقبل البشير يسابق الشمس؛ ليزف إليه البشرى بأن امرأته الصالحة (جيدا) وضعت حملها الذي كان ينتظره بفارغ الصبر؛ كان ذلك المولود هو الإمام الأعظم زيد عليه السلام، ومن الفال الحسن أن صادف مولده إشراق شمس يوم جديد، وذلك سنة ٧٥هـ بالمدينة المنورة مهاجر الرسول الأقدس.

أوصيكم أن تتخذوا كتاب الله قائداً وإماما، وأن تكونوا له تبعاً فيما أحببتم وكرهتم

سبب تسميته «زيد»

حين قرعت البشرى سمع زين العابدين بمولوده الجديد، قام فصلى ركعتين شكراً لله، ثم أخذ المصحف مستفتحاً لاختيار اسم مولوده، فخرج في أول السطر قول الله تعالى: ﴿وَفَضَّلَ اللهُ المُجَاهِدِيْنَ عَلَى القَاعِدِيْنَ أَجْراً عَظِيْماً﴾[النساء:٩٥]، فأطبق المصحف، ثم قام وصلى ركعات، ثم فتح المصحف، فخرج في أول السطر: ﴿وَلاَ تَحْسَبَنَّ الَّذِيْنَ قُتِلُوْا فِيْ سَبِيْلِ اللهِ أَمْوَاتاً بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُوْنَ﴾[آل عمران:١٦٩]، ثم قام وركع، ثم أخذ المصحف وفتحه فخرج في أول سطر: ﴿إِنَّ اللهَ اشْتَرى مِنَ المُؤْمِنِيْنَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الجَنَّةَ يُقَاتِلُوْنَ فِيْ سَبِيْلِ اللهِ فَيَقْتُلُوْنَ وَيُقْتَلُوْنَ وَعْداً عَلَيْهِ حَقّاً فِيْ التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيْلِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللهِ فَاسْتَبْشِرُوْا بِبَيْعِكُمُ الَّذِيْ بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الفَوْزُ العَظِيْمُ﴾[التوبة:١١١].

عند ذلك أطبق زين العابدين المصحف وضرب بإحدى يديه على الأخرى، وقال: ((إنا لله وإنا إليه راجعون، عُزِّيت في هذا المولود، إنه (زيد) ..أما والله ما أجد من ولد الحسين في يوم القيامة أعظم منه وسيلة، ولا أصحاباً آثر عند الله من أصحابه)).

وروي - أيضاً- أن علي بن الحسين (ع) أصبح ذات يوم فقال لأصحابه: إني رأيت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في ليلتي هذه، فأخذ بيدي فأدخلني الجنة، فزوجني حوراء فواقعتها فعلقت، فصاح بي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: يا علي، سمّ المولود منها زيداً، فما أن حلّ اليوم التالي حتى أرسل المختار بأمِّ زيد، فلما ولد زيد أخرجه علي بن الحسين وهو يقول: ﴿هذا تأويل رؤياي من قبل قد جعلها ربي حقًا﴾.

صفته الخلقية

كان الإمام زيد بن علي (ع) أبيض اللون، أعين (واسع العين)، مقرون الحاجبين، تامّ الخلق، طويل القامة، كثّ اللحية، عريض الصدر، أقنى الأنف، أسود الرأس واللحية إلا أنه خالطه الشيب في عارضيه، وكان وسيماً جميلاً وأديباً يُشبَّه بأمير المؤمنين (ع) في الفصاحة والبلاغة والبراعة حتى قيل: انتهت الفصاحة والزهادة والعبادة من بني هاشم إلى زيد بن علي (ع).

نشأة طيبة

نشأ الإمام زيد عليه السلام في بيت النبوة الطاهر، وتحت ظل الدوحة الكريمة؛ فتربى في حجر التقى والصلاح والعلم والدين، في كنف والده الإمام زين العابدين وسيد الساجدين؛ ومن كزين العابدين، مدرسة الصلاح، وملهم التقوى.

لم يَفْتَح الإمام زيد عليه السلام عينيه إلا على نفوس أذابها الحزن، وأضناها الألم، وصدى وقعة كربلاء لا زال يملأ الجهات، وأحداثها ماثلة للعيان، فكان ذلك سبباً كافياً لتتشبع نفسيته عليه السلام بالدروس العظيمة في التضحية والفداء، والشجاعة والإباء، والبذل والعطاء المستوحاة من واقعة الطفوف.

ترعرع الإمام زيد عليه السلام في ظل والده قرابة تسعة عشر عاماً، يأخذ منه العلم فقهاً وحديثاً وسيرة وسلوكاً وغيرها، ويروي عنه، ويستقي منه الأخلاق؛ يرى والده، وقد انهكت العبادةُ جسمه حتى عزَّ على أهله ما هو عليه، فأقبلت عمته زينب على الصحابي الجليل جابر بن عبدالله، فقالت له: يا صاحب رسول الله إنَّ لنا عليكم حقاً، ومن حقنا عليكم إذا رأيتم أحدنا يهلك نفسه اجتهاداً أن تذكروه الله وتدعوه إلى البقيا على نفسه، وهذا علي بن الحسين بقية أبيه الحسين قد انخرم أنفه، ونقبت جبهتاه وركبتاه وراحتاه من دأب نفسه بالعبادة، فانطلق جابر إلى علي بن الحسين، فطلب الإذن منه بالدخول، فأذن له، فوجده في محرابه قائماً يصلي قد أنهكته العبادة، فلما انفتل الإمام من صلاته نهض إلى جابر، ورحَّبَ به، وسأله سؤالاً حفياً عن حاله، وأقبل جابر يقول: يا بن رسول الله، أما علمت أن الله إنما خلق الجنة لكم ولمن أحبكم، وخلق النار لمن أبغضكم وعاداكم، فما هذا الجهد الذي كلفته نفسك؟، فقال له علي بن الحسين: يا صاحب رسول الله، أما علمت أن جدي رسول الله قد غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، فلم يدع الاجتهاد، وتعبد بأبي وأمي حتى انتفخ ساقه، وورمت قدماه، فقيل له: أتفعل هذا وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر، فلمَّا نظر إليه جابر وليس يغني فيه قول يمل به من الجهد والتعب إلى القصد، فقال له: يا بن رسول الله البقيا على نفسك فإنك من أسرة بهم يستدفع البلاء، وبهم تستمطر السماء.

فقال له عليه السلام: يا جابر لا أزال على منهاج أبويَّ متأسياً بهما حتى ألقاهما، فبهر جابر، وأقبل على من حضر، فقال لهم: ما رئي من أولاد الأنبياء مثل علي بن الحسين، إلا يوسف بن يعقوب، والله لذرية النبي محمد أفضل من ذرية يوسف بن يعقوب، وإنَّ منهم لمن يملأ الأرض عدلاً كما ملئت جوراً.

فانطبعت هذه السيرة التي تحاكي سيرة الأنبياء، إقبالاً على الله، وتجرداً من الدنيا في نفسية الإمام زيد عليه السلام، وانعكست على شخصيته، حتى جسد أباه في صفاته، وحاكاه في أخلاقه، فكان نورُ التقوى يبدو في وجهه، وينطلق على لسانه، ويتجلى في أفعاله.

فكان والده أولَّ أستاذ له عليهما السلام، ثم أكمل تتلمذه وأخذه للعلم على يدي أخيه باقر علم الأنبياء محمد عليهما السلام.

عبادة العارفين

كان الإمام زيد بن علي عليهما السلام من أعظم عُبَّاد زمانه، قد عرف الله حق المعرفة، وخشيه أشدَّ الخشية، وعبده حتى أخذت منه العبادة كلَّ مأخذ، فهو يسمع الشيء من ذكر الله، فيُغمى عليه حتى يقول القائل: ما هو بعائد إلى الدنيا, ويستمع إلى آيات الله بما فيها من ترغيب وترهيب، فيميل كميل الشجرة في اليوم العاصف.

قال عنه أخوه عبد الله بن علي عليهما السلام: ((كان أخي زيد إذا قرأ القرآن بكى حتى نظنه سيموت)).

ويكفي في معرفة ذلك وصف ولده الإمام يحيى بن زيد لعبادته اليومية إذ يقول: ((رحم الله أبي كان أحد المتعبدين، قائماً ليله صائماً نهاره، كان يصلي في نهاره ما شاء الله, فإذا جنَّ الليل عليه نام نومة خفيفة، ثم يقوم فيصلي في جوف الليل ما شاء الله، ثم يقوم قائماً على قدميه يدعو الله تبارك وتعالى ويتضرع له ويبكي بدموع جارية حتى يطلع الفجر، فإذا طلع الفجر سجد سجدة، ثم يصلي الفجر، ثم يجلس للتعقيب «الدعاء والاستغفار عقيب الصلاة» حتى يرتفع النهار، ثم يذهب لقضاء حوائجه، فإذا كان قريب الزوال أتى وجلس في مصلاه واشتغل بالتسبيح والتحميد للرب المجيد، فإذا صار الزوال صلى الظهر وجلس، ثم يصلي العصر، ثم يشتغل بالتعقيب ساعة ثم يسجد سجدة، فإذا غربت الشمس صلى المغرب والعشاء)).

سيد الزاهدين

كانت روح الإمام زيد عليه السلام تنطوي على معالي الأخلاق وجليل الصفات, فقد نذر نفسه لله وباعها منه, فلم تشغله الدنيا بزبارجها، ولا أخذته بحيلها, بل كانت سيرته سيرة الزاهدين المخلصين, العارفين بالله, المؤثرين ما عنده على ما في الدنيا الفانية؛ ولقد كان عليه السلام يدعو الله: ((اللَهُمَّ إني أسألك سُلُوّاً عن الدنيا، وبغضاً لها ولأهلها، فإنَّ خَيْرَها زَهِيْدٌ، وشرَّها عتيدٌ، وجَمْعَها يَنْفَدُ، وصَفْوَها يَرْنَقُ، وجديدَها يَخْلَقُ، وخيرَها يَنْكَدُ، وما فات منها حَسْرَةٌ، وما أُصِيْبَ منها فِتْنَةٌ، إلا من نالته منك عِصْمَةٌ، أسألك اللَهُمَّ العِصْمَةَ منها، ولا تجعلنا ممن رضي بها، واطمأن إليها، فإنها مَنْ أمنها خانَتْهُ، ومن اطمأن إليها فَجَعَتْهُ، فلم يُقِمْ في الذي كان فيه منها، ولم يَظْعَنْ به عنها)).

وكان الإمام زيد يحث أصحابه دائماً ويحذرهم من الدنيا باعتبارها محطة السقوط, ومحل الاختبار، فكان يقول لهم: ((أيها الناس، أفضل العبادة الورع، وأكرم الزاد التقوى، فتورعوا في دنياكم، وتزودوا لآخرتكم)), ولم يكن ينصحهم بالقول وحسب, بل كان أسوة في الزهد والورع حتى شهد له بذلك من عرفه، فقال عنه عامر الشعبي: (ما رأيت أزهد من زيد بن علي)، وقال تلميذه أبو خالد الواسطي: (ما رأيت هاشمياً أزهد ولا أورع من زيد بن علي).

وارث علم الأنبياء

درس الإمام زيد عليه السلام في مدرسة أهل البيت النبوي، فتخرج منها إماماً عظيماً يقتدى به، وعلماً مبجلاً يهتدى بهديه، وهامة إسلامية ظل أثرها إلى حاضرنا وسيبقى إلى مستقبلنا بإذن الله؛ ولنورد في هذا العنوان شهاداتِ معاصريه، وأكابر علماء زمانه, وكلُّها شهادات دالة ومجمعة على أنه عليه السلام كان في العلم منقطع النظير؛ قال عنه أخوه باقر علم الأنبياء: (لقد أوتي زيدٌ علماً لَدُنِيّاً فاسألوه فإنه يعلم ما لا نعلم), وقال لمن سأله عنه: (سألتني عن رجل مُلئ إيماناً وعلماً من أطراف شعره إلى قدميه، وهو سيد أهل بيته), ويقول عنه ابن أخيه الإمام جعفر الصادق: (كان والله أقرأنا لكتاب الله وأفقهنا لدين الله), ولقد قال عبدالله بن الحسن الكامل الذي كان معاصراً للإمام زيد عليهما السلام في كلامه للحسين بن زيد: (وإنه قد توالى لك آباء، وإن أدنى آبائك زيد بن علي الذي لم أرَ فينا ولا في غيرنا مثله).

وقال فيه الإمام أبو حنيفة النعمان: (ما رأيت في زمنه أفقه منه ولا أعلم ولا أسرع جواباً ولا أبين قولاً؛ لقد كان منقطع القرين), ويقول عنه سليمان بن مهران الأعمش: (ما رأيت فيهم - يعني أهل البيت - أفضل منه ولا أفصح ولا أعلم).

يقول الشيخ محمد أبو زهرة: «ولم يجتمع العلماء على تقدير عالم كتقدير زيد بن علي رضي الله عنه، فأهل السنة، والمرجئة، والمعتزلة، والشيعة، قد أجمعوا على إمامته في العلم، وأنه كان حجة في علم الفقه، فكان من أعلم الناس بالحلال والحرام، ولقد أجمع العباد والزهاد على أنه لم يكن له نظير في علمه وخلقه، ولقد جاء في مقاتل الطالبيين:(أن المرجئة وأهل النسك لا يعدلون بزيد أحداً).»[أبو زهرة, الإمام زيد حياته وعصره، ص٧٤].

فصاحة وبيان

نشأ الإمام زيد عليه السلام في بيتٍ عرف أهله بالفصاحة والبيان، وامتد نسله بمن أوتي جوامع الكلم وفصل الخطاب، فكان عليه السلام من فرسان البلاغة, وأمراء البيان، وأفصح من نطق، وأرفع من تحدث، ولقد شهد له بذلك مشاهير الفصحاء والخطباء في زمانه؛ يقول خالد بن صفوان: (انتهت الفصاحة والخطابة والزهادة والعبادة من بني هاشم إلى زيد بن علي), وقال الشاعر الكبير الكميت بن زيد الأسدي وهو من فحول الشعراء عن فصاحة الإمام زيد: (ما رأيت قط أبلغ من زيد بن علي).

ولأجل فصاحة الإمام زيد عليه السلام، وقوة بيانه وتأثيره، فزع خصمه هشام بن عبدالملك، وهو ما دعاه إلى أن يكتب لواليه على العراق: امنع أهل الكوفة من حضور مجلس زيد, فإن له لساناً أقطع من ظبة السيف, وأحَدَّ من شبا الأسنة، وأبلغ من السِّحر والكهانة، ومن كل نفث في عقدة.

ويكشف هذا الفزع عن مدى بلاغته، وبراعة منطقه، وجمال أدبه, وهو ما دعا الناشئة في عصره إلى الاهتمام بحفظ كلامه, والإسراع إلى تعلمه كما يتعلم الواجب من الفرض، والسائر من المثل، والنادر من الشعر, ولقد ذكر في كتاب نور الأبصار أن عالم النحو الشهير سيبويه كان يحتج بما روي عن الإمام زيد من أشعار.

شجاعة وإقدام

اجتمع في الإمام زيد بن علي عليهما السلام الإيمان العميق بالله تعالى مع الشجاعة والبسالة، قد آتاه الله الحمية والهمة والنجدة لقول الحق لا يخشى فيه لومة لائم، حتى في أحرج المواقف وأشدِّها حاجة إلى المداراة؛ ولقد حكيت في شجاعته قصص سار بها الفرسان وتناقلها المؤرخون. ومن تلك المواقف ما رواه أبو معمر سعيد بن خثيم: كنا في دار شبيب بن غرقد فسمعنا وقع حوافر خيل، فما منا من أحد إلا أرعب وارتعد وظننا أنه يوسف بن عمر، ووالله ما رأيت رجلاً أربط جأشاً ولا أشد نفساً من زيد بن علي، ووالله ما قطع حديثه ولا تغير وجهه ولا حل حَبْوَته، فلما مضت الخيل وجرينا نفرج عما كنا فيه، أقبل علينا بوجهه وقال: ((يُرعب أحدكم الشيء يخاف أن يحل به، والله ما خرجت لغرض الدنيا ولا لجمع مال. ولكن خرجت ابتغاء وجه الله والتقرب إليه، فمن كان الله هِمَّتَه ومن الله طلبته، فما يروعه شيء إذا نزل به)).

ومن مواقفه الشجاعة التي لا تخفى، وقوفه في مجلس طاغية بني أمية هشام بن عبدالملك، وتهديده لليهودي الذي كان يسب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وما كان من كلامه لهشام، حتى خرج من مجلسه وهو يردد في شجاعة وإباء: ((والله لا تراني إلا حيث تكره)).

وقد وصف الإمام المنصور بالله عبد الله بن حمزة إقدام الإمام زيد (ع)، فقال: (لمَّا أقبل عليه جنود أهل الشام من تلقاء الحيرة حمل عليهم كأنه الليث المغضب. فقتل منهم أكثر من ألفي قتيل بين الحيرة والكوفة).

و خير شاهد على عظم شجاعته في الحق وجهاد أهل الباطل ثورته على الطاغية هشام بن عبدالملك في تلك الفترة العصيبة المظلمة، التي رُعب فيها أهل الإسلام عن قول الحق والوقوف في وجه الباطل.

علاقة الإمام الباقر بأخيه الإمام زيد (ع)

كان الباقر محمد بن علي بن الحسين الأخ الأكبر للإمام زيد. وقد أخذ الإمام زيد (ع) عنه العلم مع أخذه عن والده علي بن الحسين حتى بلغ في العلم مبلغاً عظيماً فاق به أهله.

تحاول الإمامية أن يفرقوا بين الإمام زيد وأخيه الباقر ويظهروا أنهم مختلفون. وأن الإمام هو الباقر ثم ابنه جعفر ولكن المرويات عن الإمام الباقر وولده الإمام جعفر الصادق تكشف خلاف ذلك، فالباقر يقول في الإمام زيد: ((بأبي أنت وأمي يا أخي أنت والله نَسِيج وحدك، بركة الله على أمٍّ ولدتك، لقد أنجبت حين أتت بك شبيه آبائك)).

وقال الباقر فيه حين سئل عنه: ((لقد أوتي زيدٌ علماً لَدُنِّيَاً فاسألوه فإنه يعلم ما لا نعلم)).

وقال لسائل آخر سأله عنه: ((سألتني عن رجل مُلئ إيماناً وعلماً من أطراف شعره إلى قدميه، وهو سيد أهل بيته)).

وقال الباقر أيضاً: ((أمّا زيد فلساني الذي أنطق به))، وقال أيضاً: ((ما ولد فينا أشبه بعلي بن أبي طالب منه)).

وروي عنه أنه قال – وأشار إلى زيد –: ((هذا سيد بني هاشم، إذا دعاكم فأجيبوه، وإذا استنصركم فانصروه)).

علاقة جعفر الصادق بالإمام زيد (ع)

جعفر الصادق بن محمد الباقر هو ابن أخ الإمام زيد، وقد كان يجل ويعظم عمَّه زيد بن علي غاية الإجلال والتعظيم فقد كان يقول فيه: ((كان والله أقرأنا لكتاب الله وأفقهنا لدين الله))، وقال لأحد أصحابه: ((لا أظنك ترى فينا أحداً مثله إلى أن تقوم الساعة)).

وقد أراد الخروج معه لمَّا خرج المرة الأخيرة من المدينة إلى الكوفة، وقال له: ((أنا معك يا عم)). فقال له الإمام زيد: ((أما علمت يا بن أخي أن قائمنا لقاعدنا، وأن قاعدنا لقائمنا، فإذا خرجتُ أنا وأنت فمن يخلفنا في حرمنا؟)). فتخلف جعفر بأمر عمه زيد، ودفع بولديه عبدالله ومحمد معه، وقال: ((من قُتِل مع عمي زيد كمَنْ قتل مع الحسين، ومن قتل مع الحسين كمن قتل مع علي بن أبي طالب، ومن قتل مع علي كمن قتل مع النبي صلى الله عليه وآله وسلم)).

وقيل للإمام جعفر الصادق (ع) عن الرافضة إنهم يبرؤون من عمك زيد، فقال: ((برئ الله ممن برئ من عمي، كان والله أقرأنا لكتاب الله وأفقهنا في دين الله، وأوصلنا للرحم، والله ما ترك فينا لدنيا ولا لآخرة مثله)).

وروى محمد بن سالم، قال: قال لي جعفر بن محمد: يا محمد، هل شهدت عمي زيداً؟ قلت: نعم، قال: فهل رأيت فينا مثله: قلت: لا، قال: ولا أظنك والله ترى فينا مثله إلا أن تقوم الساعة، كان والله سيدنا ما ترك فينا لدين ولا دنيا مثله.

وقد استفسرت الشيعة جعفراً في مبايعتهم لزيد، فقال: ((نعم بايعوه، فهو والله أفضلنا وسيدنا وخيّرنا)).

ومن هنا يظهر مدى قوة العلاقة التي ربطت زيداً بابن أخيه جعفر، وهذا هو الذي صح في التواريخ والسير التي تناقلها أهل البيت عليهم السلام، ولا يصح ما رواه الزائغون عن آل رسول الله من روايات خلاف هذا.

عزيمة لا تلين

أصحاب المواقف العظيمة الذين يبذلون أرواحهم في سبيل قضايا الأمة لا يمكن أن تثنيهم التقديرات المسبقة، ولا التخمينات الجزافية؛ لأنهم ينطلقون مع الله وفي رضاه بكل عزيمة وإصرار؛ وفي مقدمة هؤلاء نجد الإمام زيداً عليه السلام قد ضرب في هذا الميدان أروع الأمثلة، وقدم من التضحية والاستبسال أصدق النماذج؛ فعندما حذره ابن عمه محمد بن عمر بن علي بن أبي طالب (ع) من أهل العراق، وَقال له: «إن أهل العراق خذلوا أباك علياً وحسناً وحسيناً عليهم السلام، وإنك مقتول، وَإنهم خاذلوك»، لم ينثن عليه السلام عن وجهته، ولم تلن عزيمته، وَتمثل بـ:

بكرت تخوفني الحتوف كأنني ... أصبحت عن غرض الحتوف بمعزل

فأجبتها إن المنية منهل ... لا بد أن أسقى بذاك المنهل

إن المنية لو تمثل مثلت ... مثلي إذا نزلوا بضيق المنزل

فقني حياءك لا أبا لك واعلمي ... أني امرؤ سأموت إن لم أقتل

قدوة المستبصرين

على غرار الكثير من الثورات التي قامت في مختلف العصور كان لثورة الإمام زيد(ع) من القيم والمبادئ ما يؤهلها لاقتلاع الظلم والظالمين، وما يجعلها ثورة خالدة إلى قيام الساعة، ورمزاً ومنهجاً تسير عليه الثورات في كل زمان ومكان؛ وكيف لا تكون كذلك، وقائدها رجل كزيد بن علي عليهما السلام؟!

قد يظن البعض أن الإمام زيداً(ع) لم يقم بثورته الخالدة إلا كقيام الأغلبية من القواد طمعاً في الماديات، أو لأغراض خاصة، أو لحميةٍ جاهلية، لكن ذلك كله غير صحيح. فلم يكن الإمام زيد(ع) - ولا للحظة واحدة- ميَّالاً لهذه الخصال، فهو أطهر وأنقى من هذا، وما أصدقه حين قال: ((والله ما كذبت كذبة منذ عرفتُ يميني من شمالي، ولا انتهكت لله مَحْرَماً منذ عرفتُ أن الله يعاقب عليه))، وقال لأحد أصحابه: ((يا أبا قرة، والذي يعلم ما تحت وريد زيد بن علي أن زيد بن علي لم ينتهك لله محرماً منذ عرف يمينه من شماله، يا أبا قرة من أطاع الله أطاعه ما خلق))، كما يتضح علوُّ خُلُقه، ورُقي نفسه عندما قال عليه السلام: ((ما سرني بجرعة غيظ أتجرعها، وأصبر عليها حمر النعم)).

لقد كانت أهداف الإمام زيد(ع) أهدافَ الداعية الذي يرى أن ذروة النصر أن تكون أفعاله وفق توجيهات السماء، لا وفق ما تمليه عليه نفسه، وأن الأهداف المتينة والمقاصد النبيلة هي ما ينبغي أن يجعلها المسلم العادي فضلاً عن القائد نصب عينيه بدلاً من الأهداف الدونية، وتظهر هذه الأهداف جليةً في كلامه عليه السلام حين خاطب أصحابه، فقال: ((لا تقولوا: خرجنا غضباً لكم، ولكن قولوا: خرجنا غضباً لله ودينه))، كان الإمام زيد(ع) يدرك أن بعض أنصاره ومؤيديه قد تختلط عليهم الأفكار وتلتبس عليهم المقاصد، فيخرجون بدافع العاطفة أو العصبية العمياء، ويرون أن تلك هي الفرص المناسبة للانتقام، ويغفلون عن الأهداف الأساسية، والغايات الكبرى لكل ثورة، ومن أجل ذلك كان الإمام زيد(ع) يؤكد لأصحابه على ضرورة الفصل بين الأهداف المقدسة والعواطف العابرة؛ وما أعظمه عليه السلام، وأجل غايته حين بلغه أن من أصحابه من يقولون: نحن نحكم في دماء بني أمية وأموالهم برأينا، وكذلك نفعل برعيتهم، فقام فيهم خطيباً، وقال: ((أيها الناس إنه لا يزال يبلغني منكم أن قائلاً يقول: إن بني أمية يَفْيءُ لنا، نخوض في دمائهم، ونرتع في أموالهم، ويقبل قولنا فيهم، وتُصَّدق دعوانا عليهم!! حُكم بلا علم، وعزم بلا روية، جزاء السيئة سيئة مثلها، عجبت لمن نطق بذلك لسانه، وحدثته به نفسه، أبكتاب الله أخذ؟ أم بسنة نبيه صلى الله عليه وآله وسلم حكم؟ أم طمع في ميلي معه، وبسطي يدي في الجور له؟ هيهات هيهات)).

ما أعظمه من موقف، وما أنصفه من كلام، ففي حين أن من قام عليهم أناس قد بلغوا في الطغيان والظلم مبلغاً يستحقون به أشد العقوبات وأقسى الأحكام. إلا أنه لم يرض لهم بأن يُظلموا، ولم يرضَ فيهم إلا بحكم الله سبحانه وتعالى وشرعه، وهو ما يكشف عن سموِّ نفسه عليه السلام وعلو مقصده؛ وإذا كانت هذه نظرته للظالمين، فكيف كانت نظرته للمستضعفين.

وإذا نظرنا إلى أمثال قوله عليه السلام:((والله لو علمتُ أن رضاء الله عز وجل في أن أقدح ناراً بيدي حتى إذا اضطرمت رميت بنفسي فيها لفعلت؟))، ((والله ما أبالي إذا أقمت كتاب الله عز وجل وسنة رسوله صلى الله عليه وآله وسلم أن أجِّجَت لي نارٌ ثم قُذِفْتُ فيها ثم صرت بعد ذلك إلى رحمة الله تعالى))، ((والله لوددت أن يدي ملصقة بثريا ثم أقع منها حيث أقع فأتقطع قطعة قطعة ويصلح الله بذلك أمر أمة محمد))، وقوله:((الحمد لله الذي أكمل لي ديني أما والله لقد كنت أستحي من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أن أَرِدَ عليه ولم آمر في أمته بمعروف ولم أنه عن منكر)).

إذا نظرنا إلى ذلك فسنعرف حينها عمق نظرته عليه السلام للأمور، وسندرك أن مقاصده هي مقاصد السماء، وأنه مستعد في سبيل الوصول إليها وتحقيقها للتضحية بنفسه.

وهنا جدير بنا ونحن نشاهد في بعض ثوار اليوم الذين حملوا اسم زيد لكنهم للأسف استنوا سنة هشام. أن نهمس في آذانهم بكلمات الإمام زيد عليه السلام الثائر السالفة الذكر. وأن نقول لهم: لا يليق بكم إلا أن تتلمسوا منهاجه وتحملوا روحيته. وتشيدوا عدالته ودولته. وإلا فلن يكتب عنكم التأريخ إلا أنكم سطر أسود في تأريخهم؛ فثورة الإمام زيد لها ذلك الأثر العظيم إلا لأنه المستمدة من العقيدة أعظمه من إمام، في سجل الطغاة. ولحظة عابرة عليه السلام لم تُخلَّد ولم يكن تمثل تلك القيم والمثل السامية الراسخة والبصيرة النافذة؛ فما وما أنبلها من مقاصد.

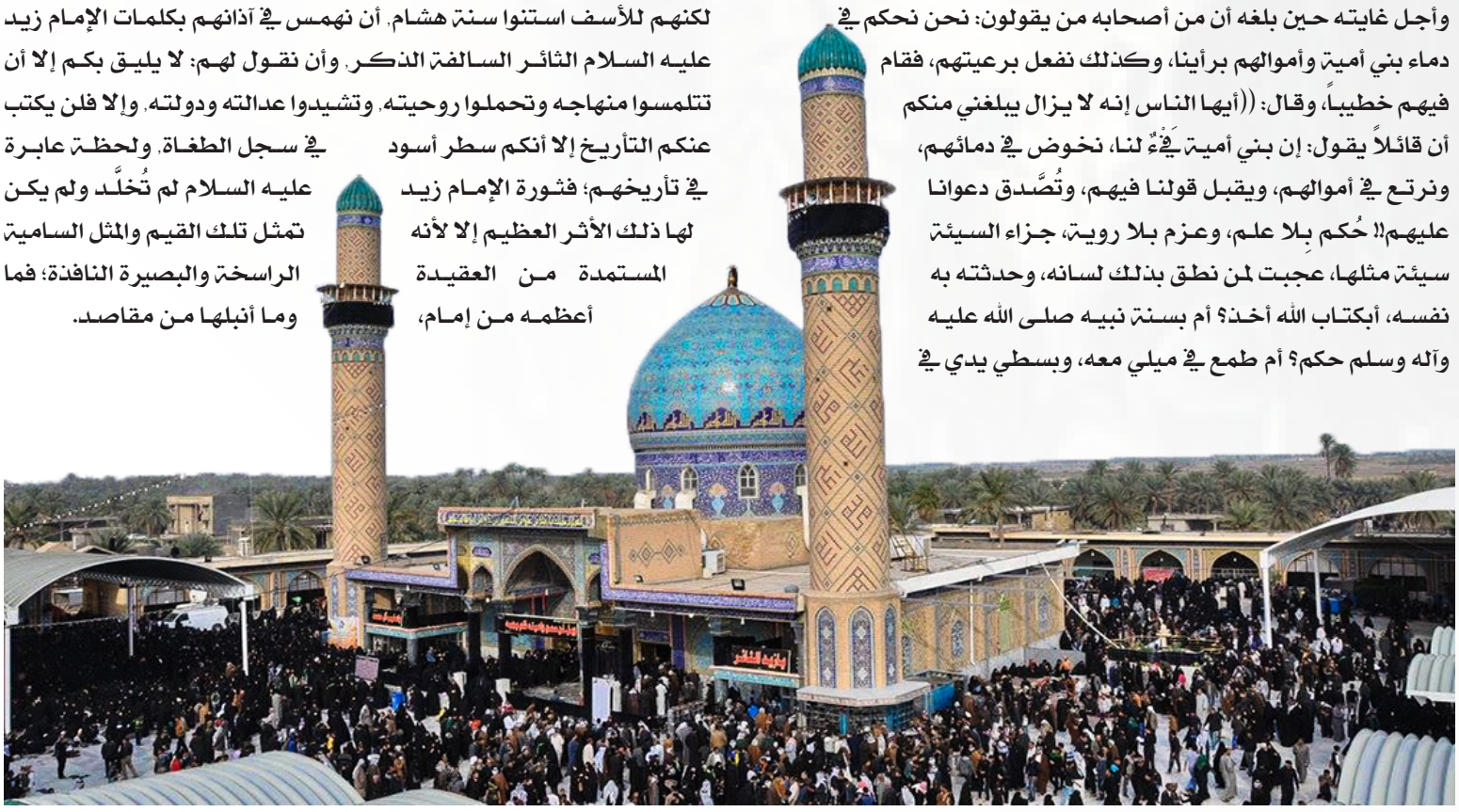

والله لو علمت أن رضاء الله في أن أقدح ناراً بيدي حتى إذا اضطرمت رميت بنفسي فيها لفعلت

أولاد الإمام زيد «ع»

للإمام زيد أربعة من الأولاد وهم: يحيى، وعيسى، ومحمد، والحسين، وعقب الإمام زيد من عيسى ومحمد والحسين.

يحيى بن زيد

هو الإمام أبو طالب يحيى بن زيد عليهما السلام، وأمُّه ريطة بنت أبي هاشم عبدالله بن محمد بن الحنفية؛ كان مولده بالمدينة المنورة سنة ٩٧هـ، وهو أكبر أولاد الإمام زيد (ع).

صفته عليه السلام: كان قطط الشعر، حسن اللحية حين استوت، وكان مثل أبيه عليهما السلام في الشجاعة، وقوة القلب، ومبارزة الأبطال، كما كان شديد العبادة والزهد، وهو أحد أعلام الآل العظام.

وهو القائل:

يا بن زيد أليس قد قال زيد

من أحب الحياة عاش ذليلا

كن كزيد فأنت مهجة زيد

تتخذ في الجنان ظِلاً ظليلا

قاتل يحيى بين يدي والده الإمام زيد عليهما السلام أشدَّ قتال، وكان عمره ٢٥ سنة، فلمَّا أصيب والده عليه السلام جاء يحيى، فأكبَّ على والده وهو يبكي، والدماء تنزل على وجه الإمام، والسهم نابت في جبينه، فجمع يحيى قميصه في يده ومسح به الدم من وجه أبيه، ثم قال له: أبشر يا بن رسول الله، تَرِد على رسول الله وعلي وفاطمة وخديجة والحسن والحسين وهم عنك راضون.

قال الإمام: صدقت يا بني، فأيُّ شيءٍ تريد أن تصنع؟

قال يحيى: أجاهدهم إلا أن لا أجد الناصر.

قال: نعم يا بني، جاهدهم، فوالله إنك لعلى الحق، وإنهم لعلى الباطل، وإن قتلاك في الجنة، وقتلاهم في النار.

وبعد استشهاد الإمام زيد خرج ابنه يحيى عليهما السلام من العراق إلى خرسان، باحثاً عن موطن يستطيع منه ترتيب الثورة من جديد، وتنفيذ وصية والده، فقاد من خرسان ثورةً جديدة على الحكم الأموي.

حظيت ثورة الإمام يحيى عليه السلام بتأييد كبير من أهل خرسان، وهو ما قض مضاجع الخليفة الأموي الوليد بن يزيد بن عبدالملك، والذي عرف عنه استهانته بالدين والقرآن؛ فهو الذي مزق المصحف الشريف بالسهم حين افتتح المصحف، فكان أول حرف منه: ﴿واستفتحوا وخاب كل جبار عنيد﴾، فأنشد:

أتوعدني بجبار عنيد

فهاأنا ذاك جبار عنيد

إذا ما جئت ربك يوم حشر

فقل يا رب مزقني الوليد

عمل الخليفة الأموي على إفشال ثورة الإمام يحيى، واستنفد لأجل ذلك طاقاته، وسخر إمكانيته، وأرسل الجيوش تلو الجيوش لقتاله؛ فاستشهد الإمام يحيى عليه السلام بعد معارك كبيرة، ومواقف بطولية عظيمة؛ وذلك يوم الجمعة من شهر رمضان سنة ١٢٦هـ، فعم الحزن أهل خرسان، وسموا من ولد لهم في تلك السنة بيحيى؛ وقبر عليه السلام في مدينة الجوزجان، وهو معروف مزور إلى يومنا هذا.

عيسى بن زيد

علمٌ من أعلام الإسلام الخالدين، وواحد من عظماء أهل البيت الطاهرين؛ وُلِدَ عليه السلام في شهر محرم، سنة ١٠٩هـ.

وكان عليه السلام طويل القامة، قد أثر السجود في جبهته، كثير الذكر لله تعالى والخشية منه، ممن يُضرب بهم المثل في العلم والفقه والعبادة والورع والزهد.

عرف بفقيه العترة، وبمؤتم الأشبال؛ وسبب ذلك أنه لمَّا انصرف من وقعة باخمرا، التي استشهد فيها الإمام إبراهيم بن عبدالله، خرجت لبوة معها أشبالها فعرضت في الطريق، وجعلت تحمل على الناس، فأخذ عيسى بن زيد - عليهما السلام - سيفه وترسه، ثُمَّ نزل إليها فقتلها، فقال له مولىً له: أيتمت أشبالها يا سيدي؟! فضحك عيسى فقال: نعم، أنا مؤتم الأشبال.

عاش عيسى بن زيد مجاهداً في سبيل الله، وكانت له مواقف في الشجاعة والبطولة تقصر عنها مواقفُ الأبطال، فقد شارك في ثورة الإمام النفس الزكية محمد بن عبدالله، كما كان صاحب راية أخيه الإمام إبراهيم بن عبدالله عليهم السلام في وقعة باخمرا.

عاش عليه السلام ثلاثين عاماً، متخفياً من الظالمين، مخيفاً لهم، وتعرض في سبيل ذلك لأنواع من البلاء، حتى توفاه الله في الكوفة، سنة ١٦٩هـ.

الحسين بن زيد

الإمام الحسين بن زيد بن علي، هو أحدُ أعلام العترة المطهرين، وُلِدَ عليه السلام سنة ١١٥هـ، واستشهد والده وعمره سبع سنوات، فكفله الإمامُ جعفر الصادق عليه السلام، فقعد في رحابه سنين، وأخذ العلم عنه.

عُرِفَ الحسينُ بذي الدمعة؛ لكثرة بكائه، و قد روي عن ولده يحيى بن الحسين أنه قال: قالت أمي لأبي: ما أكثر بكاك؟! فقال: (وهل ترك لي السهمان والنار سروراً يمنعني من البكاء)، يعني بالسهمين السهم الذي قُتِلَ به أبوه زيد، والسهم الذي قُتِلَ به أخوه يحيى عليهما السلام.

كان للحسين عليه السلام مشاهد عظيمة من الشجاعة والاستبسال في ثورة الإمام النفس الزكية محمد بن عبدالله، وثورة أخيه الإمام إبراهيم بن عبدالله عليهما السلام.

ولمكانته العظيمة، وتحركه الجاد ظلت السلطات العباسية الظالمة تترصده وتبحث عنه، فعاش زمناً متخفياً عن الناس، حتى توفي عليه السلام سنة ١٩١هـ.

الإمام زيد عليه السلام

وإسهاماته في العلوم الدينية والإنسانية

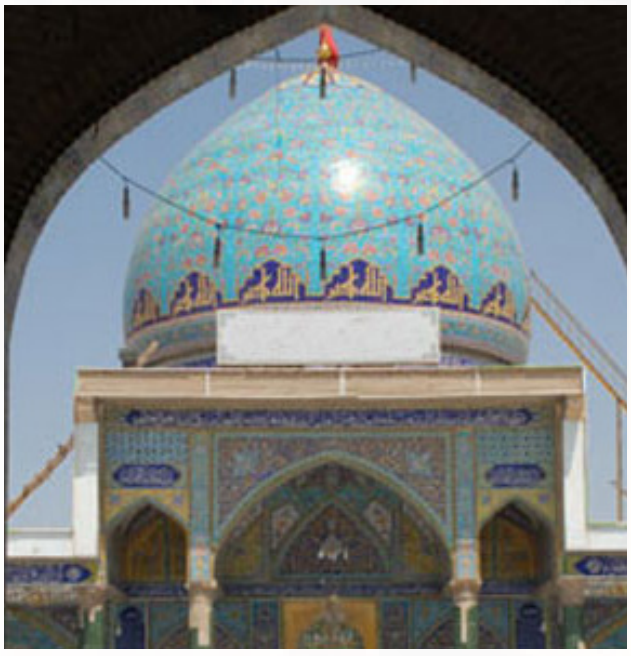

كان الإمام زيد بن علي عليهما السلام موسوعة علمية فريدة في مختلف العلوم الدينية الإسلامية والإنسانية، وله إسهامات في كل فرع منها؛ ولنلقي الضوء - هنا- على جانب من هذه الإسهامات بشيء من الاختصار.

أولاً: في العلوم الدينية

العلوم الدينية هي العلوم المتعلقة بالإسلام كدين، كعلوم القرآن، وعلوم الحديث، وعلم الكلام، وعلم أصول الفقه، وعلم الفقه، وعلوم اللغة؛ ولنذكر دوره في هذه العلوم بنوع من التفصيل، كما يلي:

١-علوم القرآن: وهي العلوم المتعلقة بالقرآن الكريم، قراءةً، وتفسيراً، وناسخاً ومنسوخاً.

ولا تخفى علاقة الإمام زيد بن علي عليهما السلام بالقرآن الكريم؛ فقد كان يوصف عند الناس بـ(حليف القرآن)؛ لكثرة تدبُّره وتأمُّله فيه، وقال عليه السلام عن نفسه: (خلوت بالقرآن ثلاث عشرة سنة أقرؤه وأتدبره)، وقال عليه السلام:)والله ما خرجت ولا قمت مقامي هذا حتى قرأت القرآن، وأتقنت الفرائض، وأحكمت السنن والآداب، وعرفت التأويل كما عرفت التنزيل، وفهمت الناسخ والمنسوخ، والمحكم والمتشابه، والخاص والعام، وما تحتاج إليه الأمّة في دينها مما لا بدّ لها منه ولا غنى لها عنه، وإني لعلى بينة من ربي). وقال عنه الإمام جعفر الصادق: (كان بالقرآن عالماً) ، وقال عاصم بن عبيد الله بن عاصم بن عمر بن الخطاب: (وإنه ليسمع الشيء من ذكر الله فيغشى عليه حتى يقول القائل ما هو بعائد إلى الدنيا). وقال عمر بن موسى الوجهي: (وما رأيت أعلم بكتاب الله عز وجل، وناسخه ومنسوخه، ومشكله وإعرابه منه). وقال سلمة بن كهيل: (ما رأيت أنطق لكتاب الله من الإمام أبي الحسين). وقال السيد أبو طالب عن خصائص الإمام: (اختصاصه بعلم القرآن ووجوه القراءات، وله قراءة مفردة مروية عنه).

إذن فقد برع الإمام زيد عليه السلام في علوم القرآن ومعارفه المختلفة، وحاز أزمَّتها؛ ومن هذه العلوم:

أ- قراءة القرآن: ظهر تضلع الإمام زيد عليه السلام بعلم القراءة من خلال مناظراته عن علل القراءات، من روايته عن آبائه عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، ومن الشعر العربي، وقد عني القراء والدارسون للقراءات بقراءته فقد جمعها عدد من المهتمين بالقراءات في كتب مستقلة منهم: عمر بن موسى الوجهي، والحسن بن علي الأهوازي، وأبو حيان التوحيدي، وذكرها آخرون مع غيرها، واكتفى قسم ثالث بالاستشهاد بها.

ب- تفسير القرآن: كان للإمام زيد عليه السلام السبق في التأليف في هذا الباب، وكان مؤلفه المسمى (تفسير غريب القرآن) أول باكورة من هذا النوع في الصعيد الإسلامي، ولهذا يعد أهم كتاب في غريب القرآن، وسار على نهجه فيه من جاء بعده كأبي عبيدة معمر بن مثنى البصري المتوفى سنة ٢٠٩هـ في كتابه (مجاز القرآن)، والذي ظهر جلياً تأثير الإمام زيد بن علي عليهما السلام فيه( )، وكذلك تفاسيره المتفرقة في كتب التراث، فقد روي عن الإمام زيد بن علي تفاسير عديدة مسندة ومرسلة لكثير من الآيات ولأكثر من مذهب( ).

ج- الناسخ والمنسوخ: وله عليه السلام مشاركة بعد إتقانه له كما قال: (..وفهمت الناسخ والمنسوخ..)، وروى: (لا يفتي الناس إلا من قرأ القرآن، وعلم الناسخ والمنسوخ، وفقه السنة، وعلم الفرائض والمواريث)، ويرى الإمام زيد بن علي عليهما السلام: أن (المحكمات هن الناسخات، والمتشابهات هن المنسوخات).

٢-علوم الحديث: وهي العلوم المتعلقة بالمرويات عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم من تدوين وحفظ، وصيانة وتحقيق.

أ-التدوين والحفظ: يُعدُّ مجموع الإمام زيد بن علي عليهما السلام أول مدون حديثي فقهي في الإسلام، فقد جمعه الإمام زيد عليه السلام في كتاب يقول عنه أبو خالد الواسطي رحمه الله تعالى: (سمعناه من كتاب معه قد وطأه وجمعه فما بقي من أصحاب زيد بن علي عليهما السلام ممن سمعه إلا قتل غيري)، إضافة إلى مروياته عليه السلام المتفرقة في كتب التراث الإسلامي والتي رواها عنه أكثر من مائة وأربعة وخمسين راوياً.

ب-الصيانة والتحقيق: وذلك لمَّا كثر الكذب على النبي صلى الله عليه وآله وسلم والأئمة عليهم السلام وضع الإمام زيد بن علي عليهما السلام أصولاً للكشف عن صحة نسبتها إليهم، وهي أول أصول موضوعة للتحقيق، قال عليه السلام: (فمن جاءك عني بأمر أنكره قَلْبُك، وكان مبايناً لما عهدته مِنِّي، ولم تفقهه عَنِّي، ولم تره في كتاب الله عز وجل جائزاً، فأنا منه برئ، وإن رأيت ذلك في كتاب الله عز وجل جائزاً، وللحق مُمَاثِلاً، وعهدت مثله ونظيره مني، ورأيته أشبه بما عهدته عني، وكان أولى بي في التحقيق، فاقبله فإنَّ الحق من أهله ابتدأ وإلى أهله يرجع)، وترتيب هذه الأصول كما يلي: إنكار القلب، المباينة للمعهود، المخالفة للمشهور، المخالفة للقرآن، المخالفة للحق، والمراد بالحق هو الثابت المقطوع عقلياً أو تاريخياً أو دينياً أو واقعياً.

والله ما خرجت ولا قمت مقامي هذا حتى قرأت القرآن، وأتقنت الفرائض، وأحكمت السنن والآداب

٣ـ علم الكلام، ومعرفة الله تعالى وتوحيده وعدله، وما يترتب عليهما. وهو من العلوم التي اختص بها عليه السلام، قال السيد أبو طالب عليه السلام: (اختصاصه بعلم الكلام، الذي هو أجل العلوم، وطريق النجاة والعلم الذي لا ينتفع بسائر العلوم إلا معه، والتقدم فيه، والاشتهار عند الخاص والعام. هذا أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ يصفه في صنعة الكلام ويفتخر به ويشهد له بنهاية التقدم، وجعفر بن حارث في كتاب الديانة، وكثير من معتزلة بغداد كمحمد بن عبد الله الإسكافي وغيره، وينسبون إليه في كتبهم، ويقولون: نحن زيدية). وللإمام زيد بن علي عليهما السلام مساهمات فاعلة في تصحيح الانحرافات العقدية المنسوبة إلى الإسلام والتي من خلالها تردى الوضع. وشُرْعِنَ الظلم والطغيان. ومجموع رسائله المطبوع خير شاهد وبرهان على ذلك؛ ففي التوحيد: أعلن الإمام عليه السلام التنزيه المطلق لله تعالى مقابل التشبيه الطاغي فقال: (إني أبرأ إلى الله من المشبهة الذين شبهوا الله بخلقه). وكان يفسر الآيات والأحاديث المتشابهات على مقتضى قاعدة التنزيه في قوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾[الشورى:١١] .

وفي العدل: أعلن براءته من الجبر وأتباعه ومن الإرجاء والمرجئة فقال: (إني أبرأ إلى الله من ... ومن المجبرة الذين حملوا ذنوبهم على الله. ومن المرجئة الذين طمعوا الفساق في عفو الله). وقال عليه السلام: (سبحانه وتعالى عما تَقُولُ المُجْبِرةُ والمشبِّهةُ علواً كبيراً؛ إذ زعموا أن الله سبحانه وتعالى خَلَقَ الكُفْرَ بنفسه، والجحودَ والفِرْيَةَ عليه... فقالوا: منه جَمِيْعُ تَقَلُّبِنَا في الحركات، التي هي: المعاصي، والطاعات، وإنه محاسبنا يوم القيامة على أفعاله التي فعلها، إذْ خَلَقَ: الكفر، والزِّنا، والسَّرقة، والشِّرك، والقتل، والظلم، والجور، والسَّفه؛ ولولا أنه خَلَقَها - زعموا - ثم أجْبَرَنا عليها، ما قَدَرْنَا على أن نَّكْفُرَ، وأن نُشْرِكَ، أو نُكَذِّب أنبياءه، أو نجحد بآياته، أو نقتل أولياءه، أو رُسُلَه، فلما خَلَقَهَا وجَبَرَنا عليها، وقَدَّرها لنا، لم نخرج من قضائه وقَدَرِه، فَغَضِبَ علينا، وعذَّبنا بالنار طول الأبد.

كلا وباعِثِ المرسلين، ما هذه صِفَةُ أحكم الحاكمين، بل خلقهم مُكَلَّفِين مستطيعين مَحْجُوْجِيْنَ مأمورين منهيين، أمرنا بالخَيْرِ ولم يمْنَعْ منه، ونهى عن الشَّر ولم يُغْرِ عليه)).

وفي الوعد والوعيد: بعد ما انتشر القول بإخلاف الوعيد؛ تقليداً لليهود كما أخبر عنهم الله تعالى في كتابه المجيد ﴿وَقَالُوا لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلاَّ أَيَّاماً مَّعْدُودَةً قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ اللهِ عَهْداً فَلَن يُخْلِفَ اللهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ﴾[البقرة:٨٠]. وتعلقوا بآيات متشابهات ﴿ابْتِغَاء الْفِتْنَةِ﴾[آل عمران:٧]. كقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ﴾[النساء:٤٨] وقد بين معناه الإمام زيد عليه السلام بقوله: (وسأبين لمن ضل عن هذه الآية كيف تفسيرها. الذين يشاء لهم المغفرة هم الذين أنزل فيهم: ﴿إِن تَجْتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلاً كَرِيماً﴾ [النساء:٣١]. فمن وعد الله من أهل القبلة النارَ بكبيرة أتاها فإن الله تعالى قال: ﴿إِنَّ اللهَ لاَ يُخْلِفُ الْمِيْعَادَ﴾ [الرعد: ٣١]، وقال تعالى: ﴿إِنَّهُ كَانَ وَعْدُهُ مَأْتِيًّا﴾ [مريم:٦١]، وقال تعالى: ﴿مَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ وَمَا أَنَا بِظَلاَّمٍ لِلْعَبِيْدِ﴾[ق: ٢٩] .

وفي الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر: فبعد أن عُطِّل هذا الأصل العظيم والذي منه الجهاد. لم يقتصر إسهام الإمام زيد بن علي عليهما السلام في ترسيخ هذا الأصل من الناحية النظرية فحسب؛ بل أيده بالخروج العملي والذي انتهى باستشهاده عليه السلام. بل يعتبر الإمام زيد محيي هذا الأصل. وفاتح باب الجهاد. قال الإمام النفس الزكية محمد بن عبدالله عليهما السلام: (والله لقد أحيا زيد بن علي ما دثر من سنن المرسلين، وأقام عمود الدين إذ اعوج، ولن ننحو إلا أثره، ولن نقتبس إلا من نوره، وزيد إمام الأئمة، وأول من دعا إلى الله بعد الحسين بن علي عليهم السلام). وقال الإمام الحسين الفخي عليه السلام: (من قام منا أهل البيت داعياً إلى الله وإلى كتابه وإلى جهاد أئمة الجور فهو من حسنات زيد بن علي، فتح والله لنا زيد بن علي باباً إلى الجنة وقال لنا: ادخلوها بسلام).

قال الإمام زيد بن علي عليهما السلام في بيان قوله تعالى: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاء بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللهَ وَرَسُولَهُ أُوْلَـئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللهُ إِنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾[التوبة:٧١]: (فبدأ بفضيلة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ثم بفضيلة الآمرين بالمعروف والنَّاهين عن المنكر عنده، وبمنزلة القائمين بذلك من عباده؛ ولعَمْري لقد استفتح الآية في نَعْت المؤمنين بفريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فاعتبروا عباد الله وانتفعوا بالموعظة؛ وقال تعالى في الآخرين: ﴿وَالْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُم مِنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ﴾ [التوبة:٦٧]؛ فلعَمْري لقد استفتح الآية في ذمهم بأمرهم بالمنكر ونهيهم عن المعروف، فاعتبروا عباد الله وانتفعوا، واعلموا أن فريضة الله تعالى في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، إذا أقيمت له استقامت الفرائض بأسرها، هَيِّنُها وشَدِيْدُها، وذلك أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هو الدعاء إلى الإسلام، والإخراج من الظُّلْمَة، ورَدُّ الظالم، وقِسْمَة الفَيء والغنائم على منازلها، وأخذ الصَّدقات ووضعها في مواضعها، وإقامة الحدود، وصِلَة الأرحام، والوفاء بالعهد، والإحسان، واجتناب المحارم، كل هذا من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، يقول الله تعالى لكم: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلاَ تَعَاوَنُوا عَلَى الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللهَ إِنَّ اللهَ شَدِيْدُ العِقَابِ﴾[المائدة:٢]). قال الإمام المنصور بالله عليه السلام: (وكان زيد بن علي -عَلَيْه السَّلام- أول من سن الخروج على أئمة الجور، وجرد السيف بعد الدعاء إلى الله)( ).

وفي الإمامة: وهي الرئاسة العامة المحكومة بالشرع. أبان الإمام زيد عليه السلام مسألة الأولوية في تقلدها، فقال: (قبض رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، فكان أولى الناس بالناس أمير المؤمنين علي صلى الله عليه، ثم قبض أمير المؤمنين علي صلى الله عليه فكان أولى الناس بالناس أمير المؤمنين الحسن بن علي عليهما السلام، ثم قبض أمير المؤمنين الحسن بن علي عليهما السلام، فكان أولى الناس بالناس أمير المؤمنين الحسين بن علي عليهما السلام). وفي الشروط الواجب توفرها للمرشح للإمامة. قال عليه السلام: (لا ينبغي لأحد منا أن يدعو إلى هذا الأمر حتى تجتمع فيه هذه الخلال: حتى يعلم التنزيل والتأويل، والمحكم والمتشابه، والناسخ والمنسوخ، وعلم الحلال والحرام، والسنة الناسخة ما كان قبلها، وما يحدث كيف يرده إلى ما قد كان لمثل ما فيه وله، وحتى يعلم السيرة في أهل البغي، والسيرة في أهل الشرك، ويكون قوياً على جهاد عدو المؤمنين، يدافع عنهم، ويبذل نفسه لهم، لا يُسلِمَهم حَذَر دائرة، ولا يخالف فيهم حكم الله تعالى، فهذه صفة من يجب طاعته من آل الرسول صلى الله عليه وآله وسلم). وفي طرق تولي الإمامة يرى عليه السلام الدعوة والخروج مع كمال الخصال المعتبرة. قال عليه السلام: (فالإمام منا المفترض الطاعة علينا وعلى جميع المسلمين: الخارج بسيفه، الداعي إلى كتاب الله وسنة نبيه، الظاهر على ذلك، الجارية أحكامه، فأما أن يكون إمام مفترض الطاعة علينا وعلى جميع المسلمين متكئ فرشه مرجئ على حجته، مغلق عنه أبوابه تجري عليه أحكام الظلمة، فإنا لا نعرف هذا).

وعرفت التأويل كما عرفت التنزيل، وفهمت الناسخ والمنسوخ، والمحكم والمتشابه...

٤ـ علم الفقه: هو العلم أو الظن بجُمَل من الأحكام الشرعية وعللها وأسبابها وشروطها. والإمام زيد بن علي عليهما السلام كان فقيهاً مجتهداً بل فاتح باب الاجتهاد (ولم يكن في زمانه أفقه منه، ولا أعلم، ولا أسرع جواباً، ولا أبين قولاً لقد كان منقطع القرين) كما قال أبو حنيفة. وقد خلف الإمام عليه السلام تراثاً فقيهاً جليلاً تميز بالواقعية وسعة الأفق وأصالة المصادر ودُوِّنَ في (المجموع) و(كتاب مناسك الحج والعمرة). بالإضافة إلى ما نقل عنه من فتاوى وأنظار في كتب التراث الإسلامي. قال عنه الشيخ أبو زهرة: (وقد أثر عن زيد فقه عظيم تلقاه الزيدية في كل الأقاليم الإسلامية، وفرعوا عليه وخرَّجوا، واختاروا من غير ما تلقوا، واجتهدوا ومزجوا ذلك كله بالمأثور عن فقه الإمام زيد بن علي- رضي الله عنه - وتكونت بذلك مجموعة فقهية لا نظير لها، إلا في المذاهب التي دونت وفتحت فيها باب التخريج، وباب الاجتهاد على أصول المذهب، ولعله كان أوسع من سائر مذاهب الأمصار، لأن المذاهب الأربعة لا يخرج المخرجون فيها عن مذهبهم إلى مرتبة الاختيار من غيره .. نعم أنهم يقارنون بين المذاهب أحياناً، كما نرى في المغني الحنبلي، وفي المبسوط الحنفي، وفي بداية المجتهد ونهاية المقتصد الذي ألفه ابن رشد من المالكية، والمهذب للشيرازي من الشافعية، ولكن هذه المقارنات إما أن ينتهي المؤلف إلى نصر المذهب الذي ينتمي إليه والدفاع عنه، كما نرى في مبسوط السرخسي، والمغني، وإما أن يعرض الأدلة وأوجه النظر المختلفة من غير ترجيح، ويندر أن يكون اختيار إلا في القليل، كما نرى في اختيارات ابن تيمية، إذ قد خرج من هذا النطاق، وقد اختار من مذهب آل البيت مسائله في الطلاق الثلاث، والطلاق المعلق، وكما نرى في اختيارات قليلة لكمال الدين بن الهمام من المذهب الحنفي، كاختيار رأي مالك في ملكية العين الموقوفة. أما المذهب الزيدي فإن الاختيار فيه كان كثيراً، وكان واسع الرحاب، وقد كثر الاختيار حتى في القرون الأخيرة، وكان لذلك فضل في نمائه وتلاقيه مع فقه الأئمة الآخرين).

٥ـ علم أصول الفقه: هو علم بقواعد يتوصل بها إلى استنباط الأحكام الشرعية. فهو الطرق الموصلة إلى الفقه. وكان أول واضع لقواعده أمير المؤمنين عليه السلام. قال السيد العلامة علي بن عبدالله بن القاسم: (أجمع أهل البيت المطهرين ومن تبعهم على ذلك من سائر المسلمين أنه عليه السلام - أي الإمام علي- الذي فتح بابها. وعرف أسبابها. وبين صفاتها. وقواعدها. وكلامه عليه السلام ورسائله وخطبه التي يرويها المؤالف والمخالف بهذا شاهدة وبما أشرنا إليه ناطقة). وقد أسهم الإمام زيد بن علي عليهما السلام في ترسيخ هذا العلم بوجوه عدة منها:- بيان مراتب الأدلة الشرعية. روى عليه السلام: ((أول القضاء ما في كتاب الله عز وجل ، ثم ما قاله رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، ثم ما أجمع عليه الصالحون، فإن لم يوجد ذلك في كتاب الله تعالى ولا في السنة ولا فيما أجمع عليه الصالحون اجتهد الإمام في ذلك لا يألو احتياطاً، واعتبر، وقاس الأمور بعضها ببعض؛ فإذا تبين له الحق أمضاه، ولقاضي المسلمين من ذلك ما لإمامهم)).

- حجية إجماع العترة: قال عليه السلام: (الرد إلينا، نحن والكتاب الثقلان)، وقال: (فإن الله عز وجل قد فضلهم على الخلق بالهدى والطاعة، وأعلمَ الناسَ عصمَتَهم، فلا يضلون عن الحق أبداً).

- حجية قول أمير المؤمنين عليه السلام: قال عليه السلام: (وعليك بعلي بن أبي طالب صلوات الله عليه وسلامه، فإنه كان باب حكمة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وكان وصيه في أمته، وخليفته على شريعته، فإذا ثبت عنه شيء فاشدد يدك به، فإنك لن تضل ما اتبعت علياً صلوات الله عليه وسلامه).

- شروط الاجتهاد: فقد روى عليه السلام: ((لا يفتي الناس إلا من قرأ القرآن، وعلم الناسخ والمنسوخ، وفقه السنة، وعلم الفرائض والمواريث)).

٦ـ علوم اللغة: وهي العلوم المتعلقة باللغة العربية، كالنحو، والصرف، والبيان، والمعاني، والشعر، والحكم، والرسائل، والخطب. والإمام زيد عليه السلام كان متقناً لعلوم اللغة العربية خبيراً بها، شهد له أدباء عصره بذلك كالشاعر الكميت بن زيد الأسدي القائل: (ما رأيت قط أبلغ من زيد بن علي). والأديب خالد بن صفوان المنقري القائل: (انتهت الفصاحة، والخطابة، والزهادة، والعبادة من بني هاشم إلى زيد بن علي). وكان عالم النحو الشهير سيبويه يحتج بما روي عن الإمام زيد من أشعار كما ذكر في كتاب نور الأبصار؛ ويمكن النظر لإسهام الإمام زيد بن علي عليهما السلام في النحو والصرف في قراءته المنشورة. وأما الخطب والمواعظ والحكم فمنشورة أيضاً ومجموعة. ومن الخطب: (الحمد لله على ما ابتدأنا به من نعمه، والحمد لله على ما ألهمنا من حمده، والحمد لله على جميع لطفه بنا وأياديه عندنا، اللهم وإنا لا نبلغ منتهى الحمد الواجب لك أبداً إذ كان حمدنا إياك على ما عرفتناه من نعمة يجب حمدك عليها وشكرك بها..). ومن حكمه عليه السلام: (الداعي إلى الله بغير عمل كالرامي بغير وتر). و(من استشعر حب البقاء استدثر الذل إلى الفناء). ومن أشعاره عليه السلام:

السيف يعرف عزمي عند هبته
والرمح بي خبر والله لي وزر
إنّا لنأمل ما كانت أوائلنا
من قبل تأمله إن ساعد القدر

ومنه:

لو يعلم الناس ما في العرف من شرف
وبادروا بالذي تحوي أكفّهم
لشرفوا العرف في الدنيا على الشرف
من الخطير ولو أشفوا على التلف

السيف يعرف عزمي عند هبته ** والرمح بي خبر والله لي وزر

ثانياً: في العلوم الإنسانية

العلوم الإنسانية هي العلوم الاجتماعية المتعلقة بنشاط الإنسان وحياته، كالتاريخ والسياسة والقانون والحقوق والحريات والتربية:

١- علم التأريخ:

هو حكاية الماضي الإنساني ونقله أو تدوينه، ومن عادة الناس أن يؤرخوا بالواقع المشهور والأمر العظيم، فأرخ بعض العرب بعام الختان لشهرته، وكانت العرب قديماً تؤرخ بالنجوم، إلى أن ظهر الإسلام وبدأ التأريخ لأهله بالنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم ولادة ومبعثاً وهجرة ووفاة( )؛ كونه أعظم حدث في تاريخ البشرية، ولاعتبارات دينية؛ وعلاقة الزيدية بالتاريخ دينية في المقام الأول للتأسي بالنبي صلى الله عليه وآله والأئمة من بعده من خلال تدوين سيرهم، والسير على إثرها؛ قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللهَ كَثِيراً﴾[الأحزاب:٢١]. وقال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾[الممتحنة:٦].

وللاعتبار أيضاً؛ قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي الأَلْبَابِ﴾[يوسف:١١١]. بمعرفة الحوادث، والكوارث، والوقائع، والكوائن، وأسباب الصعود والهبوط؛ لأن حياة الأمم موصولة، وحاضرها القريب وليد ماضيها البعيد. قال أمير المؤمنين عليه السلام: (أي بني، إني وإن لم أكن عمرت عمر من كان قبلي، فقد نظرت في أعمالهم، وفكرت في أخبارهم، وسرت في آثارهم، حتى عدت كأحدهم، بل كأني بما انتهى إلي من أمورهم قد عمرت مع أولهم إلى آخرهم، فعرفت صفو ذلك من كدره، ونفعه من ضرره).

وللإمام زيد بن علي عليهما السلام عناية بالتاريخ، فقد كان مؤرخاً للحوادث السابقة على عصره، ومن ذلك ما روى عنه بشر أنه قال: (قتل أويس القرني يوم صفين)، وإسحاق بن سالم وسعيد بن خثيم عنه أنه قال: (كان شعار النبي صلى الله عليه وآله وسلم يوم بدر: يا منصور أمت)، وفضيل بن الزبير عنه تسمية من قتل مع الحسين عليه السلام، وقال الأجلح بن عبدالله: سمعت زيد بن علي، وعبدالله بن حسن، وجعفر بن محمد، يذكر كل واحد منهم عن آبائه وعمن أدرك من أهله وغيرهم أنهم سمّوا له من شهد مع علي من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إلى أن قال: (وعبدالله بن بديل بن ورقاء، ومحمد بن بديل بن ورقاء الخزاعيان قتلا بصفّين، وهما رسولا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلّم إلى أهل اليمن).

٢-علم السياسة والقانون:

علم السياسية هو: العلم الذي يتعلق بالسلطة الحاكمة بناءً وتوزيعاً وهدماً، وعلم القانون هو: العلم الذي يعتني بوضع القواعد المنظمة للحكم والسلوك، وللإمام زيد بن علي عليهما السلام مشاركة سياسية فاعلة تمثلت في القيام بالمعارضة والخروج على السلطة الحاكمة لإسقاطها، وقد سلك الإمام زيد عليه السلام منهجاً واقعياً فاعلاً في إسقاط النظام الظالم وإقامة دولة العدل الإسلامية، وتمثل المنهج في تقسيم المهمة السياسية إلى قسمين:

القسم الأول: مقدمات الخروج: وهي الإجراءات اللازمة للقيام بإسقاط النظام وبناء الدولة الجديدة، وهي كما يلي:

- النصح المباشر للحاكم: باعتباره رأس النظام والمسؤول الأول على كل الاختلالات الحاصلة في الدولة، وللإمام زيد عليه السلام نصائح عدة لهشام بن عبدالملك.
- المناظرة العلنية لعلماء الحاكم: وذلك لبيان فساد منهجهم في التبرير لفساد الحاكم وظلمه وإعلام أتباعهم بذلك، وللإمام زيد عليه السلام مناظرة مع علماء هشام بن عبدالملك بالشام، بل وله نصائح لكافة العلماء.
- بث التجاوزات بين الناس بكافة وسائل الإعلام الممكنة وذلك للتأليب على الحاكم والإعلام بعدم صلاحيته للبقاء والاستمرار.

القسم الثاني: شروط الخروج: فبعد تحقق ما سبق من مقدمات للخروج تأتي شروط الخروج الفعلية لكمال المراد على الوجه المطلوب، وهي كما يلي:

- وجود القيادة الموحدة - من إمام وفقهاء وأعلام - في الرؤية والأهداف المراد تحقيقها بعد إسقاط النظام القائم، وقد توفرت القيادة الموحدة للإمام زيد عليه السلام باعتبار الإمام وجمع من الأعلام.
- وجود القوة العددية والعتادية القادرة على الإطاحة بالحاكم وإقامة النظام الجديد على أنقاضه، وقد توفر ذلك للإمام زيد عليه السلام، وقد بلغ عدد أنصاره ما يقوم به الأمر ويحقق المراد.
- حصول غلبة الظن بنجاح الخروج في تحقيق الأهداف المنشورة من إزالة الظلم القائم وإقامة العدل، ولم يخرج الإمام زيد عليه السلام إلا بعد غلبة الظن بنجاح خروجه في تحقيق الأهداف المرجوه منه، ولولا نكث الأتباع وشراؤهم لتحقق المراد.
- تحديد الموعد المناسب للخروج على الحاكم وإسقاطه، وقد حدد الإمام زيد عليه السلام موعداً له على هشام بن عبدالملك كان ليلة الأربعاء أول ليلة من صفر سنة اثنتين وعشرين ومائة، ثم عجل الخروج نتيجة وقوف المخابرات الأموية على ذلك فكان في الخامس والعشرين من محرم.

وفي مجال القانون ووضع القواعد المنظمة للحكم وضع الإمام زيد عليه السلام قاعدة العلاقة بين الحاكم والمحكوم، فقد روى عليه السلام: ((حق على الإمام أن يحكم بما أنزل الله، وأن يعدل في الرعية؛ فإذا فعل ذلك فحق عليهم أن يسمعوا وأن يطيعوا وأن يجيبوا إذا دعوا، وأيما إمام لم يحكم بما أنزل الله فلا طاعة له))، وروى: ((أيما والٍ احتجب من حوائج الناس احتجب الله منه يوم القيامة))، وفي بيان الشروط اللازمة للحاكم قال عليه السلام: (لا ينبغي لأحد منا أن يدعو إلى هذا الأمر حتى تجتمع فيه هذه الخلال: حتى يعلم التنزيل والتأويل، والمحكم والمتشابه، والناسخ والمنسوخ، وعلم الحلال والحرام، والسنة الناسخة ما كان قبلها، وما يحدث كيف يرده إلى ما قد كان لمثل ما فيه وله، وحتى يعلم السيرة في أهل البغي، والسيرة في أهل الشرك، ويكون قوياً على جهاد عدو المؤمنين، يدافع عنهم، ويبذل نفسه لهم، لا يسلمهم حذر دائرة، ولا يخالف فيهم حكم الله تعالى، فهذه صفة من يجب طاعته من آل الرسول صلى الله عليه وآله وسلم).

حق على الإمام أن يحكم بما أنزل الله، وأن يعدل في الرعية، فإذا فعل فحق عليهم أن يسمعوا ويطيعوا..

٣ـ علم الحقوق والحريات:

هو العلم المتعلق بحق الإنسان الشامل الإنساني والديني والسياسي والمدني والاجتماعي. وحقوق الإنسان هي محور مقاصد الشريعة الإسلامية. وما شُرعت الشرائع إلا لمصالحه. فالواجبات لكونها ألطافاً. والمندوبات لكونها مسهلات للواجبات. والمحرمات لكونها مفاسد. ولا شك أن دفع المفاسد كالمصلحة. والمكروهات كونها مسهلة لتجنب المحرمات. وقد وضع الإمام زيد بن علي عليهما السلام وثيقة مستقلة في بيان الحقوق اللازمة بعنوان (رسالة الحقوق)، وقال للناس: (تدارسوها وتعلموها وعلموها من سألكم .. فتعلموها وعلموها).

ومما جاء فيها: (اعلموا أن حقوق الله عز وجل مُحِيْطَةٌ بعباده في كل حَرَكة، وسبيل، وحال، ومنزل، وجارحة، وآلة؛ وحقوق الله تعالى بعضها أكبر من بعض.. إلخ. فذكر: حق الله الأكبر. وحق النفوس. وحق الجوارح. وحق الطعام. وحق الأفعال. وحق الأئمة والرعية. وحق العلماء والمتعلمين. وحق المُلاك. وحق الرحم. وحق المؤذن. وحق أئمة الصلاة. وحق الجلاس. وحق الجار. وقال في آخرها: وحقوق الله كثيرة، وقد حَرَّم الله الفواحش ما ظهر منها وما بطن، فجانبوا كل أمر فيه رِيْبَة، ودعوا ما يريب إلى ما لا يريب، والسلام).

وفي الحريات الفكرية والعملية دافع الإمام زيد بن علي عليهما السلام على تقرير حرية الإنسان في القول والعمل. وأنه مخير لا مسير. وعدم وجود جبر عليه في تصرفاته، بل وتبرأ ممن يفترض وجود ذلك بقوله: (إني أبرأ إلى الله من ... ومن المجبرة الذين حملوا ذنوبهم على الله).

وفي الحريات السياسية يرى الإمام زيد عليه السلام أن للإنسان الحرية المطلقة في المشاركة السياسية، فعندما قاد الثورة قال عليه السلام: (...فإن أجبتم سعدتم، وإن أبيتم خسرتم، ولست عليكم بوكيل).

٤ـ علم التربية والأخلاق:

هو العلم الذي يهتم بتنشئة الأفراد على القيم والأخلاق الحسنة. وقد سعى الإمام زيد بن علي عليهما السلام لبناء منظومة تربوية أخلاقية؛ لحماية المجتمع المسلم من الانحراف والفساد. وزرع القيم الأخلاقية فيه من الصدق والعدل، فكان يقول: (والله ما كذبت كذبة، منذ عرفت يميني من شمالي، ولا انتهكت لله محرماً منذ عرفت أن الله يعاقب عليه). فبدأ عليه السلام بتربية العلماء على سلوك الحق والصدع به، وذلك لما لهم من تأثير على العامة، كما قال عليه السلام: (وأنتم أيها العلماء عصابة مشهورة، وبالورع مذكورة، وإلى عبادة الله منسوبة، وبدراسة القرآن معروفة، ولكم في أعين الناس مهابة، وفي المدائن والأسواق مكرمة، يهابكم الشريف، ويكرمكم الضعيف، ويرهبكم من لا فضل لكم عليه، يبدأ بكم عند الدعوة والتحفة، ويشار إليكم في المجالس، وتشفعون في الحاجات إذا امتنعت على الطالبين، وآثاركم متبعة، وطرقكم تسلك، كل ذلك لما يرجوه عندكم من هو دونكم من النجاة في عرفان حق الله تعالى، فلا تكونوا عند إيثار حق الله تعالى غافلين، ولأمره مضيعين، فتكونوا كالأطباء الذين أخذوا ثمن الدواء واعطبوا المرضى، وكرعاة استوفوا الأجر وضلوا عن المرعى، وكحراس مدينة أسلموها إلى الأعداء، هذا مثل علماء السوء).

ثم اتجه عليه السلام إلى بناء المجتمع العلمي من خلال حث الناس على طلب العلم ونشره فكان يقول عليه السلام في مواضع عدة: (سلوني قبل أن تفقدوني، سلوني فإنكم لن تسألوا مثلي، والله لا تسألوني عن آية من كتاب الله تعالى إلا أنبأتكم بها، ولا تسألوني عن حرف من سنة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إلا أنبأتكم به). وروى عليه السلام: ((عالمٌ أفضل من ألف عابدٍ)). و((العلماء ورثة الأنبياء)). و((من سلك طريقاً يطلب فيه علماً سلك الله به طريقاً إلى الجنة)).

والمجتمع العلمي المنشود لدى الإمام زيد بن علي عليهما السلام لا بد أن يكون فاعلاً في الواقع، فيترجم ما علمه نظرياً إلى التطبيق، وقد يعرضه ذلك إلى المخاطر ويجب عليه مواجهتها دون مراعاة لحب الدنيا وحلاوة العيش، لا سيما في الجهاد والثورة على الظالمين. وقد كرر عليه السلام في مواضع عدة قوله: (من أحب الحياة عاش ذليلاً). و(من أحب البقاء استدثر الذل إلى الفناء). ففتح عليه السلام باب الجهاد ومقارعة الظالمين، ورسخه كعقيدة دينية لكل الأحرار، وعليه ساروا في كل المواطن.

والاعتصام بحبل الله والوحدة عقيدة إسلامية لدى الإمام زيد عليه السلام حاول بكافة الطرق التربوية إيصالها إلى الناس؛ كونها استجابة لقوله تعالى: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾[آل عمران: ١٠٣]. فكان يقول: (والله لوددت أن يدي ملصقة بها - أي الثريا- فأقع إلى الارض أو حيث أقع فأتقطع قطعة قطعة وأنَّ الله أصلح بي أمة محمد صلى الله عليه وآله). ويقول عليه السلام: (والله لو أعلم أنه تؤجج لي نار بالحطب الجزل، فأقذف فيها وأن الله أصلح لهذه الأمة أمرها لفعلت).

وكان عليه السلام يوصي ابنه، وهي وصية للجميع بقوله: (يا بني اطلب ما يعنيك بترك مالا يعنيك. فإن في ترك مالا يعنيك دركا لما يعنيك. واعلم أنك تقدم على ما قدمت ولست تقدم على ما أخرت. فآثر ما تلقاه غداً على مالا تراه أبداً).

والله لا تسألوني عن آية من كتاب الله إلا أنبأتكم بها، ولاتسألوني عن حرف من سنة رسول الله إلا أنبأتكم بها.

قراءة حول فكر الزيدية

الزيدية هي منهجٌ بُنيت أساساته على الدليل والحجة، فأقيمت عليها أعمدة العدل والتوحيد، وارتفع منها الإيمان بنبوة محمد صلى الله عليه وآله وسلم والكتاب والسنة وولاية أهل البيت المصطفين، وسُقف بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؛ فكان بذلك أعظم منهج للحق، وخير بيت أسس للناس.

وإنما سميت الزيدية بهذا الاسم نسبة إلى الإمام الأعظم زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب عليهم السلام، الذي حمل مشعل الدين، وجدد معالمه، وجسَّده بعد أن ضعف بريقه، وقل أصحابه؛ وهذه النسبة ليست نسبةَ تقليدٍ كما يعتقد البعض من أن الزيدية مقلدون للإمام زيد عليه السلام، كتقليد الشافعية للإمام الشافعي أو المالكية للإمام مالك رحمهم الله جميعاً، وإنما هي نسبة اعتزاء؛ لأن هذه النسبة لم يطلقها الإمام زيد على نفسه ولا على أتباعه، ولا أطلقها أتباعه على أنفسهم في البداية، وإنما هي نسبة اعتزاء اختارها الأئمة لأنفسهم؛ لما كانَ للإمام الأعظم زيد بن علي (ع) من منزلةٍ وأثر في نفوس أهل البيت (ع) لذلك قال الإمام شيخ بني هاشم عبدالله بن الحسن بن الحسن عليهم السلام: ((العلم بيننا وبين الناس علي بن أبي طالب والعلم بيننا وبين الشيعة زيدُ بن علي))، وقال ابنه الإمام النفس الزكية محمد بن عبدالله بن الحسن عليهم السلام: ((والله لقد أحيا زيد بن علي ما دثر من سنن المرسلين، وأقام عمود الدين إذ اعوج، ولن ننحو إلا أثره، ولن نقتبس إلا من نوره، وزيد إمام الأئمة))، وقال الإمام النفس الرضية إبراهيم بن عبدالله بن الحسن بن الحسن عليهم السلام: ((لو نزلت راية من السماء لم تنزل إلا في الزيدية))، فلما اجتمع أئمة العترة على ذلك الشِّعار الذي هو الاقتداء بزيد بن علي عليهما السلام اشتهر عنهم هذه التسمية.

وقد قال الإمام مجد الدين المؤيدي عليه السلام في ذلك: ((.. فإنهم إنما سموا زيدية لموافقتهم الإمام الأعظم زيد بن علي بن الحسين عليهم السلام في أصول الدين، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والخروج على الظلمة، لا التقليد في المسائل الفروعية، كيف والتقليد محرم على أهل الاجتهاد بالإجماع، ..إلخ)).

«لقد وصل المذهب الزيدي المعروف الآن في اليمن. نظراً لحرية الفكر وفتح باب الاجتهاد. ليكون خلاصة أبحاث عميقة ودراسات واسعة في كل مجالات الفقه الإسلامي العظيم، واستمرت تلك الجهود المضنية في البحث والتنقيب والتصفية أكثر من سبعة قرون، وقد قام بذلك أئمة أعلام أهل البيت النبوي الشريف ومن تابعهم من الفقهاء المجتهدين، وهم في كلّ ذلك يعتمدون على المحكم من كتاب الله والصحيح من سنة رسول الله وعلى الإجماع والقياس وأحياناً على الاستصحاب والاستحسان والمناسبة المرسلة وهي التي تتفق مع المقاصد الشرعية فيما لا يوجد له نص في الكتاب أو السنة إثباتاً أو نفياً.»[الزيدية الطائفة والمذهب]

أسس الزيدية

للفكر الزيدي أسس ومعتقدات قام عليها، من قال بها واعتقد بمضمونها فهو الزيدي أينما حلَّ، ومن خالفها عُدَّ خارجاً عن الزيدية، مجانباً لها؛ وبهذه الأسس عُرف المنتمون للزيدية وحُكِم بزيديتهم، كما عُرف بها المفارقون للزيدية المائلون عنها، وإن سَمَّوا أنفسَهم زيدية، أو سُمُّوا بذلك؛ ولنذكر هنا هذه الأسس؛ لنميز الزيدية من غيرها:

أصول الدين

وتتضمن أصولاً خمسة، وهي:

التوحيد

فالله سبحانه وتعالى هو الخالق العالم القادر الحي الذي لا أول لوجوده، الأول والآخر، الذي ليس معه شريك، وليس له كفء، وأنه لا يشبه شيئاً من مخلوقاته، فهو كما قال عن نفسه: ﴿ليس كمثله شيء وهو السميع البصير﴾، وأنه سبحانه وتعالى:﴿لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير﴾. ومعتقد الزيدية في ذلك هو معتقد الإمام علي عليه السلام حين قال: ((التوحيد أن لا تتوهمه)).

العدل

وهو سبحانه وتعالى عدل لا يظلم، وحكيم ليس في أفعاله شيء من العبث أو الخطأ، وهو جل وعلا على ما حكى عن نفسه:﴿إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي﴾، و﴿لا يكلف الله نفساً إلا وسعها﴾،﴿ولا يظلم ربك أحداً﴾، وهو أجل من أن يجبر أحداً على فعله. ومعتقد الزيدية في ذلك هو معتقد الإمام علي عليه السلام حين قال: ((العدل أن لا تتهمه)).

الوعد والوعيد

ومن عقائد الزيدية التصديق بوعد الله للمؤمنين بالجنة والخلود فيها، ووعيده للعصاة من الكفار والفساق والمنافقين غير التائبين بالخلود في

العلم بيننا وبين الناس علي بن أبي طالب، والعلم بيننا وبين الشيعة زيد بن علي .. «عبدالله بن الحسن (ع)»

نار جهنم، إيماناً بقوله تعالى:﴿إن الأبرار لفي نعيم- وإن الفجار لفي جحيم- يصلونها يوم الدين- وما هم عنها بغائبين﴾[الإنفطار:١٣-١٦]، وقوله:﴿إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات كانت لهم جنات الفردوس نزلا- خالدين فيها لا يبغون عنها حولا﴾، ﴿ومن يعص الله ورسوله ويتعد حدوده يدخله ناراً خالداً فيها وله عذاب مهين﴾، وغيرها من الآيات.

النبوة

ومحمد بن عبدالله صلى الله عليه وعلى آله وسلم هو نبي الله الخاتم، وعبده المعظَّم، كما قال تعالى:﴿ولكن رسول الله وخاتم النبيين﴾[الأحزاب:٤٠]، أرسله الله للعالمين، فبلغ الرسالة، وأدى الأمانة، ونصح الأمة، وجاهد في سبيل الله حتى أتاه اليقين، لم يفرط في شيء، ولم يتوانَ عن نصح أحد، الإيمان به وبما جاء به من الشرع (القرآن والسنة).

الإمامة

والإمام بعد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم المفترض الطاعة، هو أمير المؤمنين، وسيد الوصيين، علي بن أبي طالب عليه السلام، بالنصوص المتواترة، قال فيه الله سبحانه وتعالى: ﴿ إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون﴾، وقال فيه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في غدير خم:((من كنت مولاه فعلي مولاه، اللهم والِ من والاه، وعادِ من عاداه، وانصر من نصره، واخذل من خذله)).

قال الحسن بن يحيى بن الحسين بن زيد بن علي عليهم السلام:((أجمع علماء آل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أن علي بن أبي طالب كان أفضل الناس بعد رسول الله، وأعلمهم وأولاهم بمقامه)).

وقال فقيه الآل أحمد بن عيسى بن زيد عليهم السلام:((أوصى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إلى أولى الناس به وأفضلهم عند الله وعنده، وأعلم الناس من بعده، علي بن أبي طالب صلوات الله عليه)).

ثم الإمام بعده ابنه الحسن ثم الحسين عليهما السلام بالنص من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فهما:((إمامان قاما أو قعدا)).

ثم الإمامة بعدهما في من قام ودعا من ذرية الحسن أو الحسين، واجتمعت فيه شروط الإمامة، لأنهم ثقل الله الذين أمرنا الله باتباعهم.

مبدأ الخروج على الظالم

مما تقرر عند الزيدية وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ومن أعظم مراتبه وأجلها الخروج على الظالم المنتهك لحرمات الله، وذلك من أعظم أسس الدين عند الزيدية؛ فبه تُقام الشرائع، وتطبق الأحكام؛ وقد جسدت الزيدية هذا المبدأ أعظم تجسيد، ممثلةً بأئمتها (أئمة أهل البيت عليهم السلام)، وعلمائها وأتباعها، ولعل هذا هو السبب الرئيسي لانتماء الزيدية للإمام الأعظم زيد بن علي عليهما السلام دوناً عن غيره من العترة كانتماء اعتزاز، فأما الاتباع فإن الزيدية تتبع عموم العترة العلماء من بني الحسن والحسين؛ فهو فاتح باب الجهاد والاجتهاد؛ وهذه هي سيرة أئمة أهل البيت عليهم السلام على مرِّ العصور والأزمان، كالأئمة يحيى بن زيد، والنفس الزكية، والنفس الرضية، والحسين الفخي، والقاسم، والناصر الكبير، والهادي إلى الحق، وابنيه الناصر والمرتضى، والإمام عبدالله بن حمزة، وجميع أئمة أهل البيت عليهم السلام. وبلا شك فإن للزيدية أسوة في ذلك برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ثم بعلي والحسن والحسين عليهم السلام الذين ضحوا بأنفسهم في سبيل الله وإعلاء كلمته، والصحابة السابقين رضوان الله عليهم، حين قال الله تعالى عنهم:﴿كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر..﴾[آل عمران:١١٠].

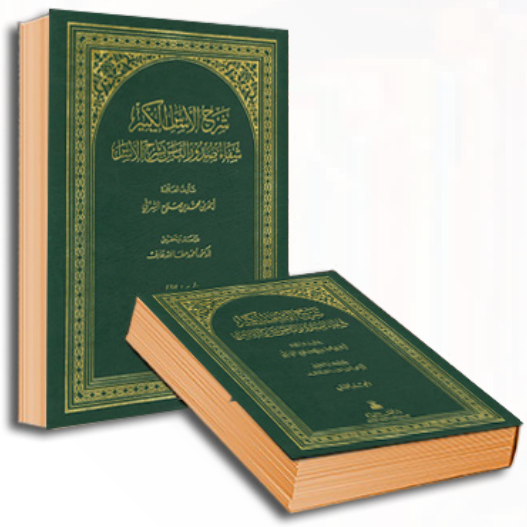

وذلك هو منهج الحق، وأَمْر الله للخلق، فالله سبحانه وتعالى يقول في محكم كتابه:﴿ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون﴾[آل عمران:١٠٤]، ﴿والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر..﴾[التوبة:٧١].

العقل عند الزيدية

العقل عند الزيدية حجة عظيمة على كل مكلف، يستطيع بواسطته معرفة الحق من الباطل، والحسن من القبيح، وبه يعرف وجود الخالق سبحانه وتعالى، وأنه العالم الحي القدير، العدل الذي لا يظلم، والحكيم الذي لا يعبث، وبالعقل قُطع بنبوة الأنبياء وصدق ما جاؤوا به، إلى غير ذلك من الأصول التي بيناها سابقاً.

ونظرة الزيدية هذه موافقة للقرآن الكريم، فالله سبحانه وتعالى قد أمرنا بإعمال عقولنا والنظر والتفكر، وأنكر على من لم يستعمل عقله، فقال جل وعلا: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُمْ بِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَى وَفُرَادَى ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا..﴾[سبأ:٤٦]، وقال تعالى: ﴿قُلِ انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ﴾[يونس:١٠١]، وقال: ﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ﴾[آل عمران:١٩١]، وقال: ﴿أفلم يسيروا في الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها..﴾[الحج:٤٦].

وكيف يمكن القول بإهمال الدليل العقلي؟ والحال أننا بالعقل فقط أدركنا كيف نفهم الحق ونقنع الخصم بثبوت الحجة، ووجود الله، وبصحة إرسال الرسل، حيث لا طريق لهذا يجدي في المسائل العقلية في مناظرة المجادل غير الدليل العقلي.

لهذا وذاك ندرك أنه لا يمكن إهمال الدليل الفكري كما يرى بعض علماء المذاهب في المسائل العلمية والعملية.

والله لا تسألوني عن آية من كتاب الله إلا أنبأتكم بها، ولاتسألوني عن حرف من سنة رسول الله إلا أنبأتكم بها.

أصول الفقه

يحتل علم أصول الفقه بالنسبة للزيدية مكانة عظيمة، فعليه تدور علوم الفقه، وبه تعرف الأحكام من القرآن والسنة، ومن خلاله وعلوم أخرى يبلغ المكلف مرتبة الاجتهاد؛ ومن تلك الأصول:

١- الأدلة في الأحكام؛ وتنقسم إلى أربعة أقسام [القرآن، السنة، الإجماع، القياس]:

[الدليل الأول]: القرآن الكريم

وهو ثقل الله الأكبر، ومنبع العلوم الشرعية، وإليه ترد الاختلافات والمنازعات، ومنه تؤخذ الاحكام.

[الدليل الثاني]: السنة النبوية

السنة مصدر من مصادر التشريع عند الزيدية بشرط أن لا يصادم الحديث نصاً صريحاً في كتاب الله سبحانه؛ فالصحيح عند الزيدية ما اكتملت فيه شروط الصحة، من صحة طريقه، وسنده، وسلامة رجاله من الجرح، أي مما ينافي العدالة والضبط مع موافقته معنى وروحاً لما في كتاب الله عز وجل ولما أجمع عليه أهل البيت (ع) قرناء القرآن.

فما توافرت فيه هذه الشروط فهو حجة عند الزيدية؛ لقول الله سبحانه وتعالى:﴿وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا﴾[الحشر:٧]، ﴿يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم فإن تنازعتم في شيء فردوه إلى الله والرسول﴾ [النساء:٥٩]، وغيرها من الآيات البينات.

ومن وصية لأمير المؤمنين عليه السلام لابن عمه عبدالله بن عباس لما بعثه للاحتجاج على الخوارج: ((لا تخاصمهم بالقرآن فإن القرآن حمَّالٌ ذو وجوه تقول ويقولون، ولكن حاججهم بالسنة فإنهم لن يجدوا عنها محيصاً)). وليس القصد من هذا أن القرآن ليس شفاء لما في الصدور، أو أن الحجة فيه تامة، ولكن لما كانت السنة لا تخالف القرآن وتؤدي نفس الحق الذي في القرآن، وكانت عباراتها مبينة لما في القرآن، فإن طبيعة أولئك القوم والغرض إقامة الحجة تقتضي الاحتجاج عليهم بأقرب ما يلزمهم فإذا عادوا تكون عودتهم للقرآن والسنة.

[الدليل الثالث]: الإجماع

وهو نوعان:

١- إجماع الأمة (وهو حجة عند الزيدية)

٢- إجماع أهل البيت (ع)

وهو حجة عند الزيدية؛ لما دلت الأدلة القطعية من خبر الثقلين وأمثاله على كون العترة مع القرآن وأنهم نجاة للأمة، ولم تصح النصوص في آحادهم بعد أمير المؤمنين والحسن والحسين، فاقتضى ذلك عصمة إجماعهم وحجيته؛ فهم ثقل الله الأصغر، وقرناء القرآن، وسفينة النجاة، ونجوم الاقتداء.

وقد قال الإمام زيد عليه السلام: ((فاختلافنا - أهل البيت- لكم رحمة، فإذا نحن أجمعنا على أمر لم يكن للناس أن يَعْدوه)).[مجموع كتب ورسائل الإمام زيد (ع)].

وسئل الباقر عليه السلام عن أهل بيت محمد هل يختلفون، فأجاب (ع): ((إنا نجتمع ونختلف، ولن يجمعنا الله على ضلالة)).[كتاب الزيادات من جامع علوم آل محمد للشريف العلوي].

هذه أسس الزيدية وعقائدها، من قال بها واعتقد بمضمونها الذي تفصيله في كتب أصول الدين، فهو الزيدي أينما حلّ، وإن سُمِّي بخلاف ذلك، ومن خالفها أو بعضها فليس من الزيدية وإن سُمِّي زيدياً، وهذه أصول الفقه وأدلتها في الاستنباط.

[الدليل الرابع]: القياس

دليل تعتمده الزيدية، وهو: إلحاق فرع بأصل ثابت بدليل الشرع لاشتراكهما في علة الحكم.

٢- الاجتهاد

هو طريق للوصول إلى الأحكام الشرعية من خلال بذل الوسع في تحصيل الأحكام الشرعية، ولا يكون إلا عند عدم وجود نص شرعي صحيح على النوازل، والأمة بحاجة ملحَّة إليه، وخصوصاً مع التطورات في جوانب الحياة المختلفة؛ وفي نفس الوقت فإن الاجتهاد موافق للشرع، فالله سبحانه وتعالى يقول:﴿ولو ردوه إلى الرسول وإلى أولي الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم﴾[النساء:٨٣].

ومن ذلك حديث معاذ بن جبل حين وجهه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إلى اليمن حين قال له: بمَ تقضي فيهم؟ قال: بكتاب الله. قال: فإن لم تجد؟! قال: بسنة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم. قال: فإن لم تجد؟! قال: أجتهد رأيي، ولم ينكره صلى الله عليه وآله وسلم بل قال: الحمد لله الذي وفَّق رسول رسوله؛ ولم ينكر هذا الحديث أحد، بل تلقته الأمة بالقبول.

وقال الإمام الناصر الكبير الأطروش الحسن بن علي عليه السلام: ((فإذا نظر الطالب في اختلاف علماء آل الرسول صلى الله عليه وآله وسلم فله أن يتبع قول أحدهم إذا وقع له الحق بدليل من غير طعن ولا تخطئة للباقين)). [الإرشاد إلى سبيل الرشاد].

المسائل الفرعية المجمع عليها عند أهل البيت (ع)

هناك مسائل من فروع الدين قد وقع الإجماع عليها من أهل البيت (ع)، كالجهر بالبسملة، والأذان بحي على خير العمل، وعدم جواز المسح على الخفين، وحُرمة نكاح المتعة، وغيرها.

ولا يخرج عن الزيدية من يخالف في المسائل الفرعية المختلف فيها بين أهل البيت (ع)، كرفع اليدين عند تكبيرة الإحرام، والقنوت في الفجر هل قبل الركوع أم بعده، وغيرها مما محله كتب الفقه.

فهذه أسس الزيدية وعقائدها، من قال بها واعتقد بمضمونها الذي تفصيله في كتب أصول الدين، فهو الزيدي أينما حلَّ، وإن سُمِّي بخلاف ذلك، ومن خالفها أو بعضها فليس من الزيدية وإن سُمِّي زيدياً، وهذه أصول الفقه وأدلتها في الاستنباط.

الانتشار الجغرافي للزيدية

جاء المذهب الزيدي الذي جدد شعائره الإمام زيد بن علي عليهما السلام امتداداً لدين الله الذي أقامه رسول الله صلوات الله عليه وعلى آله، وكان عليه أهل بيته المطهرون، وهو منهج الله الذي قاده أنبياؤه على مر العصور، ولكن بغير مسمى الزيدية لمّا كانوا قبل عصره؛ ولنقف هنا؛ لنقرأ تحرك هذا المنهج وانتشاره منذ زمن الإمام الأعظم زيد بن علي عليهما السلام وحتى يومنا هذا.

الزيدية في العراق

خرج الإمام زيد بن علي عليهما السلام بثورته المباركة ضد حكم هشام الأموي الجائر، في سنة ١٢٢هـ، وكان أتباعه من خلص الشيعة المحبين لأهل البيت عليهم السلام، فأُطْلِقَ عليهم اسمُ الزيدية، ثم جرى هذا الاسم فيما بعد على كل من سار بسيرة الإمام زيد عليه السلام وأتباعه، فكان غالبية شيعة أهل الكوفة من بلاد العراق على مذهب الإمام زيد عليه السلام، وقد جاء في التأريخ أن ديوانه عليه السلام قد اشتمل على أسماء خمسة عشر ألفاً ممن بايعه من أهل الكوفة، وبلا شكك أن الكثير منهم كانوا زيدية المنهج.

الزيدية في نجد والحجاز

ثم انتشر المذهب الزيدي وتوسعت رقعته عبر التأريخ، حتى ضم شبه الجزيرة العربية بما فيها نجد والحجاز واليمن؛ ففي بلاد نَجْد نَجِدُ أن أهل اليمامة كانوا على مذهب الزيدية، وفي الحجاز وعلى وجه الخصوص مكة وينبع، كان للزيدية مكانتها ووجودها؛ حيث كان أشرافها جميعاً على المذهب الزيدي حتى قرون قريبة متأخرة، ومن أمراء مكة الزيديين الشريف الكبير قتادة بن إدريس الذي أذَّن في عصره بحي على خير العمل في الحرم المكي الشريف، وجدد بناء مرقد الإمام الحسين بن علي الفخي عليهما السلام.

الزيدية في المغرب

وفي المغرب الأقصى كان للزيدية حضورها المشرف؛ وذلك بخروج الإمام إدريس بن عبدالله الكامل - عليهما السلام- إليها، ودعوته إلى الله؛ حيث أسس بها أول دولة للزيدية سنة ١٧٢هـ، والتي عرفت بدولة الأدارسة، ثم قام بالدعوة بعده ابنه إدريس بن إدريس، الذي كان على منهج آبائه عليهم السلام، فسار بسيرة أبيه من نشر العدل، وإقامة معالم الدين؛ واستمرت الزيدية بالمغرب حتى انتهاء دولة الأدارسة في القرن الخامس الهجري تقريباً، ثم انتقل أهلها تدريجياً إلى مذهب الإمام مالك، وأصبح المذهبَ السائدَ بها إلى يومنا هذا. قال في كتاب «الاستئناس بتراجم فضلاء فاس» في ترجمة درَّاس بن إسماعيل (ص١٥٣): (وممن أدخل مذهب مالك إلى المغرب, وكان أهله قبله على مذهب الكوفيين والزيديين).

الزيدية في بلاد المشرق

وخلال الفترة التي أسس فيها الإمام إدريس دولة زيدية بالمغرب، كان أخوه الإمام يحيى بن عبدالله قد توجه إلى الديلم من بلاد المشرق، فنشر بها المذهب الزيدي، وأسلم على يديه كثير من أهلها؛ ثم توسعت الزيدية بعد ذلك إلى طبرستان وجرجان ونيسابور من أعمال خراسان في زمن الإمام الداعي الكبير الحسن بن زيد منذ سنة ٢٥٠هـ، ثم في زمن أخيه الإمام محمد بن زيد عليهما السلام.

وفي سنة ٢٨٤هـ قام الإمام الناصر الأطروش بالجيل والديلم داعياً إلى الله، فدخلت جيلان في دعوته، ونشر الإسلام في تلك المناطق، بعد أن كان أهلها يعبدون الحجر والشجر، حتى بلغ عدد من أسلم على يديه ألف ألف نسمة، أي مليون نسمة، وتيسر على يديه تثبيت دعائم الدولة الكريمة القائمة على العدل والدين والكرامة منهاج سلفه منهاج الكتاب والسنة.

ثم جاء بعده الإمام الداعي الحسن بن القاسم، الذي أقام أَوَدَ الدين الحنيف في نيسابور والري ونواحيهما، وفي الجيل والديلم، ثم جاء بعده عدد من الأئمة كابنه الإمام أبي عبدالله الداعي والإمامين أبي طالب وأخيه المؤيد بالله وغيرهم؛ وعلى هذا المنوال تعاقب أئمة الزيدية على بلاد المشرق؛ ليبقى المذهب الزيدي قائماً فيها بعقائده ومبادئه، فبلغ أذربيجان وبيهق وخراسان وتركستان وغيرها من البلدان.

وأئمة الزيدية هم من نشروا الإسلام في المشرق الأقصى والمغرب الأقصى، بعدلهم وعلمهم وحسن دعوتهم، بعد أن كان ظلم الحكام قبلهم يحول دون انتشاره.

يا بني اطلب ما يعنيك بترك مالا يعنيك, فإن في ترك مالا يعنيك دركا لما يعنيك,

الزيدية في اليمن

وبالنسبة لليمن، فمؤسس الدولة الزيدية فيها هو الإمام الهادي إلى الحق يحيى بن الحسين عليهما السلام، والذي قدم إلى اليمن بدعوة من أهلها سنة ٢٨٠هـ، وكانت هذه الخرجة الأولى، ثم كانت له خرجة ثانية في سنة ٢٨٤هـ، فأقام الدين، وأحيا فرائضه، ووضع حجر الأساس لهذه الدولة الزيدية، واتخذ من صعدة عاصمة لحكمه، فأقام أكبر وأطول دولة عرفتها الزيدية، والتي استمرت - وهي في حالة مدٍّ وجزر- حتى ثورة ٢٦ سبتمبر، سنة ١٩٦٢م .

لقد نشأت الدولة الزيدية - التي أسسها الإمام الهادي عليه السلام- في المناطق الشمالية من اليمن، وظل تواجدها لفترة طويلة محصوراً في هذه المناطق، مع بعض التمدد والانكماش؛ ثم بدأت في أوائل القرن الحادي عشر بالتغلغل في جنوب اليمن وتهامة حتى امتدت إلى حضرموت في أيام الإمام المتوكل إسماعيل بن القاسم عليهما السلام؛ كما توسعت هذه الدولة في أيام الإمام يحيى حميد الدين وابنه الإمام أحمد عليهما السلام، حتى شملت إب وتعز وبعض المناطق الجنوبية.

ومع أن الدولة الزيدية قد انتهت بعد ثورة ٢٦ سبتمبر، فقد بقيت الزيدية - فكراً وعقيدة- هي المذهب السائد في أغلب مناطق اليمن الميمون، بفضل علماء أهل البيت المطهرين، وشيعتهم المخلصين، حتى قام منهم بالدعوة من قام بعد ذلك، وكان آخرهم مجدد الزيدية، وإمام زمانه، المولى الحجة مجد الدين بن محمد بن منصور المؤيدي سلام الله عليه .

العلاقة بين زيدية اليمن وزيدية المشرق

ومن الجدير بالذكر أنه وبالرغم من بُعد المسافة بين المجتمع الزيدي في اليمن والمجتمع الزيدي في المشرق، إلا أنه ربطت بين المجتمعين علاقة وثيقة، وتبادل فكري كبير، وذلك من خلال قدوم علماء من الزيدية البيهقيين والطبريين وغيرهم إلى اليمن، ونقلهم لتراث الزيدية ومعارفها في تلك المناطق، والعكس.

الزيدية في مصر

وأيضاً فقد كان للزيدية تواجد في صعيد مصر في العصر المملوكي؛ فقد كان جماعة من الأشراف المتواجدين فيها بجميع فروعهم على مذهب الزيدية، ولكن هذا التواجد قد خف في عصر الظاهر بيبرس، الذي اتخذ أقصى الإجراءات لحصر القضاء في المذاهب السنية الأربعة في عام ٦٦٣هـ، مما أدى لإزاحة الزيدية من الساحة المصرية؛ ومع ذلك فإن الزيدية لم تنتهِ في مصر، فقد ظل الأشراف على المذهب الزيدي مدة من الزمن؛ حيث يذكر أبو المحاسن(وهو مؤرخ مملوكي) في كتابه «النجوم الزاهرة» بأن أحد أهالي الصعيد حكى له: ((أن غالب مزارعي بلدتنا أشراف علوية))؛ وفي موضع آخر من «النجوم الزاهرة» يقول أبو المحاسن عن الأشراف العلوية بصعيد مصر:((كان معظمهم شيعة زيدية ويتجاهرون بذلك))؛ ويلاحظ أن بعضاً من قبائل آل البيت بمصر قد تحولوا إلى المذهب الإسماعيلي في العصر الفاطمي؛ وحالياً فإن أغلب قبائل آل البيت بمختلف فروعها بمصر سنية في مذهبها.

وهكذا كان تواجد الزيدية في العديد من البلدان على مر التأريخ الإسلامي، وليس ذلك إلا بجهود أئمة المذهب الزيدي وعلمائه وأتباعه؛ ولكن - وللأسف- فإن هذا الانتشار قد تقلص نتيجة ظروف الحكم في البلدان، وملابسات شتى سيأتي الكلام عنها، حتى لم يبقَ للزيدية وجود معتبر إلا في اليمن، مع تواجد بسيط في بعض الدول الأخرى.

الانتشار الجغرافي للزيدية

أسباب اختفاء المذهب الزيدي من الكثير من البلدان

بلا شك أن لتقلص الفكر الزيدي واختفائه من الكثير من البلدان أسباب ومبررات، فمن غير المنطقي أن يصل هذا الفكر الأصيل، والقائم على الحجة والدليل إلى الكثير من البلدان ثم يتركه الناس، ولا يرغبون إليه؛ ويمكن للمتتبع للتأريخ الإسلامي عموماً والتأريخ الزيدي خصوصاً معرفة هذه الأسباب من خلال البحث والتتبع؛ ولنذكر خلاصة ذلك في عدد من النقاط:

- إن من الأسس التي يقوم عليها المذهب الزيدي كما ذكرنا سابقاً «وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والخروج على الظالم»، وبلا شك فإن هذا المبدأ قد عارض أهواء الحكام والسلاطين في الدولتين الأموية والعباسية وغيرهما؛ مما دعا هذه الدول إلى محاربة هذا الفكر أشد المحاربة، والسعي لإنهائه بشتى الطرق والأساليب، حتى قتل من قتل من أئمة الزيدية وأتباعهم، وشرد من شرد منهم، فكانوا متخفين في كثير من الأوقات، لا يأمنون على أنفسهم.

- الترهيبُ الفكري للدول ضد كل من ينتسب إلى الزيدية كان عاملاً في عدم رغبة الكثير في ظهور هذه النسبة؛ وقد دل على ذلك كلام محمد بن الحسن الشيباني الحنفي حين قال: «أنا زيدي إذا أمنتُ على نفسي، حنفي إذا خفت». [الهادي الوزير, نهاية التنويه في إزهاق التمويه، ص ٢٢٣].

- محاولة الدول لتشويه الزيدية وأئمتها، والكلام عنها بما ليس فيها، والادعاء عليها بالأكاذيب، حتى نفر البعض عنها.

- تبني الدول لغيره من المذاهب الإسلامية الأخرى, كتبني الحكام الأمويين في الأندلس للمذهب المالكي، وتبني الظاهر بيبرس في مصر للمذاهب السنية الأربعة, وتبني الدولة الصفوية في إيران للمذهب الجعفري, ثم فرض هذه المذاهب على رعيتها, كل هذا أدى إلى انحسار المذهب الزيدي عن تلك الدول.

- ضعف الحركة العلمية في الوسط الزيدي، وموت العلماء مع عدم اشتغال الأتباع بالعلم والمحافظة على قواعد المذهب, مما يجعل الخلف لا ينتسبون إليه إلا بالاسم, مما يؤدي إلى تلاشيه مع مرور الزمن.

ولا تفرقوا

سعي المذهب الزيدي لتحقيق الوحدة الإسلامية

ظل المذهب الزيدي خير داعية للوحدة الإسلامية، وترك ما يسبب الخلافات؛ لأن ذلك من التعاون على البر والتقوى، ومن واجبات المسلمين تجاه هذا الدين العظيم، ومما ينبغي أن تلتفت إليه جميع المذاهب؛ ليكون الدين الإسلامي كما أراده الله سبحانه وتعالى، دين صفاء وتسامح ووحدة وسعة، لا دين إرهاب وتناحر وتقاطع وتدابر، وقد قال الله سبحانه وتعالى: ﴿واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا﴾، ﴿ولا تفرقوا فتفشلوا وتذهب ريحكم﴾، وغيرها من الآيات؛ وقد سعت الزيدية لتحقيق هذه الوحدة الإسلامية عدداً من المبادئ والأفكار؛ منها:

- النظر إلى مسائل الفروع أنها مسائل اجتهادية، لكل مجتهد فيها نصيب ورأي، فلا ينبغي الإنكار على المجتهد ما دامت له أدلته واجتهاده شرعي، والاهتمام بالأصول التي يقل أو يندر الخلاف فيها؛ لأن بالتمسك بها تتحقق الوحدة الإسلامية.
- أن من قواعد الزيدية أنه لا يجوز التكفير أو التفسيق إلا بدليل قطعي، وهذا يوقف الإنسان عند حده، وهو ما تحتاجه وحدة الأمة.
- أن الزيدية بعيدة عن السباب والشتم للمخالفين لها من المذاهب الأخرى، أو التعدي عليها بما لا يجوز من القول أو الفعل.
- الدعوة إلى الوحدة الإسلامية في المؤتمرات والاجتماعات العلمائية في مختلف الدول، وكان آخرها دعوة الدكتور المرتضى المحطوري في أحد المؤتمرات، التي دعا فيها علماء المذاهب للكتابة عن مذاهبهم- فصاحب البيت أدرى بالذي فيه-؛ بحيث تكون هذه الكتابات هي المعتمد، ومن خلالها يتم النقد والنظر إلى كل مذهب.
- وضوح المذهب الزيدي، وعدم إحاطته بالأغشية المبهمة، وجلاء عقائده.
- التعايش مع المذاهب المختلفة،

عاشت المذاهب المختلفة معها مطمئنة آمنة، لا تخاف على عقائدها، ولا تجبر على ترك آرائها.

والزيدية جديرة بأن تكون دستور دولة لما تحمل من عقائد وقواعد تأهلها لذلك؛ فمن خلال الاجتهاد -مثلاً- استطاعت الزيدية أن تجعل الصدور واسعة رحبة، تتقبل الآراء المختلفة ما دامت من علماء مجتهدين واجتهادهم شرعي.

وأيضاً فإن من قواعد الزيدية الجمع بين الأدلة التي يكون ظاهرها التعارض، ولا يخالف واحد منها دليلاً قطعياً، وغيرها من القواعد التي يتسم بها المذهب الزيدي مما بها يُلمُّ شمل الأمة، ويزول تشتتها.

الزيدية واسطة عقد الاعتدال الذي لو نظر إليه المنصفون بعقائده وفروعه لوجدوه قنطرة الوصول إلى جمع شتات هذه الأمة، ففي ظل الدول الزيدية التي قامت في مختلف البلدان عبر العصور وبهذا يتحقق أن الزيدية دستور للشعوب، وقانون تعبر من خلاله المذاهب إلى الوحدة الإسلامية.

لوددت أن يدي ملصقة بثريا ثم أقع منها حيث أقع فأتقطع قطعة قطعة ويصلح الله بذلك أمر أمة محمد

أوضاع المسلمين في العصر الأموي وضروريات الثورة

إن من المهم للمطالع والباحث في ثورة الإمام زيد عليه السلام أن يلقي نظرة حول الأوضاع التي كان يعيشها المسلمون قبل الثورة وحالها، حتى يدرك لماذا ثار الإمام زيد؟! ويتعرف على أسباب ثورته المباركة وأبعادها.

في الحقيقة إن الوعي الإسلامي قد تعرض لكثير من التشويه والتحريف، وظلت الحقيقة غائبة بين ركام من الزيف والكذب المنهج الذي أنتجته الحكومات الظالمة، وخطته أقلام علماء السلاطين، حتى قيل أن تأريخنا الإسلامي شاهد زور؛ لأنه كتب تحقيقاً لرغبة الحكام، وتلميعاً لصورهم، وليس بعيداً عن هذه الحقيقة ما يحصل اليوم من قبل قنوات ووسائل الإعلام التابعة للحكومات المعاصرة كيف تزيف الحقائق وتخادع المواطنين، وتلمع صور الحكام مع ما هم عليه من فساد وظلم.

نعم؛ إن الحالة التي عاشتها الأمة الإسلامية في زمن بني أمية عموماً وقبل ثورة الإمام زيد على وجه الخصوص كانت مظلمة للغاية، وأوضاع الناس كانت مأساوية، وكان الواقع الإسلامي يتطلب تغييراً ضرورياً وثورة حقيقية؛ وهنا سنلقي نظرة سريعة تكشف ذلك الواقع:

الوضع العام

سنلخص الوضع العام الذي كانت تعيشه الأمة في عناوين عامة، ووقائع مشهورة تكشف بعض جرائم بني أمية:

- وقعة الحرة، والتي استباح فيها جيش يزيد المدينة المنورة، فقتل عشرة آلاف إنسان من الأنصار وأبناء الأنصار، واغتصب ما يقارب ألف امرأة؛ وكانت تلك الفاجعة بعد استشهاد الإمام الحسين (ع).
- هدم الكعبة؛ فقد تعرضت الكعبة في خلافة بني أمية للهدم أكثر من مرة.
- قتل التابعي المشهور سعيد بن جبير وخيار التابعين وأبناء الصحابة، وقد أحصى التأريخ أن الحجاج أحد زبانية بني أمية قتل ما يقارب ٢٠٠ ألف، ومات وفي سجنه خمسون ألف رجل وثلاثون ألف امرأة.
- قتل كل من يحب أهل البيت (ع).
- سب أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليهم السلام على المنابر الإسلامية، واستمرار ذلك ما يقارب الثمانين عاماً.
- تعاطي الخمر ومعاقرته جهاراً نهاراً من قبل حكام المسلمين، وانتشاره في أوساط المسلمين.
- جلب المغنيين والمغنيات وتشجيعهم وإهدار أموال المسلمين في المنكرات.
- الاستهانة بالمقدسات الإسلامية، ومن أمثلة ذلك:

❖ أن الإمام زيداً عليه السلام دخل على هشام، وفي مجلسه يهودي يسب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فانتهره الإمام زيد، وقال: يا كافر أما والله لئن تمكنت منك لأختطفن روحك، فقال هشام: مه يا زيد لا تؤذِ جليسنا. فخرج زيد عليه السلام، وهو يقول: من استشعر حبَّ البقاء استدثر الذل إلى الفناء.

❖ وفي يوم من أيام المواجهة بين الإمام زيد والجيش الأموي ظهر رجل من أهل الشام من كلب على فرس رائع، فلم يزل شاتماً لفاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وآله، فجعل زيد يبكي حتى ابتلت لحيته وجعل يقول: أما أحد يغضب لفاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وآله؟ أما أحد يغضب لرسول الله صلى الله عليه وآله؟ أما أحد يغضب لله؟...إلخ.

أيها الناس..البصيرة .. البصيرة ثم القتال، فإن الله يجازي عن اليقين أفضل جزاء يجزي به على حق..

الوضع الديني والعقائدي

على الصعيد الديني والعقائدي وطَّدَ بنو أمية حكمهم وملكهم بتحريف عقيدة الإسلام, وإدخال الأفكار الضالة إلى المجتمعات الإسلامية, فجاؤوا بعقيدة الجبر والإرجاء وغيرهما، فمعاوية بن أبي سفيان هو أول من سنَّ الجبر, حين قال في خطبة له: إنما أنا خازن من خزان الله.. إلخ؛ كما أسس الأمويون من الأفكار الضالة تقديس ولي الأمر وتحريمهم لمخالفته وإيجابهم لطاعته، حتى لو كان ظالماً يجلد ظهرك ويفري لحمك؛ ولقد بلغ الأمر بأحد ولاتهم، وهو الحجّاج بن يوسف الثقفي أن يخطب أمام الجماهير قائلاً: رسولك أفضل أم خليفتك؟! يريد بذلك أن عبد الملك بن مروان أفضل من النبي صلى الله عليه وآله وسلم.

ومن أخطر ما مارسه الأمويون في محاربة الحق والاسلام الصافي إبعادهم الناس عن أهل البيت (ع)، وتشويه صورتهم في عقولهم, حتى صنعوا في الوعي الشعبي أن اتباع أهل البيت (ع) والتشيع لهم معصية لله وخروج عن دينه, ووظفوا لنشر هذه الأفكار الباطلة علماء السوء, وأجبروا الناس على اعتقاد تلك الأقوال, وتعاملوا بالصرامة والقتل والتعذيب لكل من خالفهم في الرأي، ويكفي شاهداً على ذلك ما مارسه الخليفة الأموي هشام بن عبدالملك مع غيلان الدمشقي والجعد بن درهم.

- أما الجعد بن درهم فإنه لما أنكر أنْ يكون القرآن أزلياً وقال بأنه محدث، أخذه هشام وأرسله إلى خالد القسري، وهو أمير العراق، وأمره بقتله، فحبسه خالد، فلما صلى صلاة العيد يوم الأضحى قال في آخر خطبته: انصرفوا وضحوا يقبل الله منكم، فإني أريد أن أضحي اليوم بالجعد بن درهم, فنزل فضحى به.

- أما غيلان الدمشقي, فقد ذكر المؤرخون أنه كان يقول أن معاصي العباد منهم, وليست من الله, فأمر هشام بضربه مع أحد رفقائه سبعين جلدة, ثم أمر هشام بإخراج ألسنتهما من أقفيتهما، فلم يلبثا أن ماتا، ثم ألقيا على مزبلة يراهما الناس مصلوبين.

ولأجل هذا وغيره فقد حكى التأريخ أن بني أمية في مجملهم كانوا يدينون بالإسلام في الظاهر وهم يبطنون الكفر, كما كانوا - بحسب مصطلح اليوم- أدوات بيد السلطة البيزنطية آنذاك, وكان كبار مستشاريهم يهوداً ونصارى, وقد يشهد لذلك وجود اليهودي في مجلس هشام حين دخل عليه الإمام زيد (ع), وكذا النصراني الذي كان في مجلس يزيد بن معاوية حين أدخلوا عليه رأس الحسين (ع), فالواقع يشهد أن القرار كان بيد رجال مخابراتٍ يهود ونصارى كانوا في البلاط الأموي، وهم من كانوا يديرون دفة الحكم، وأن بني أمية كانوا إليهم أقرب منهم إلى الإسلام، وإلا فهل يُتصور أن مسلماً يؤمن بالله ورسوله يتجرأ على سفك دم ابن بنت نبيه؟!

الوضع المعيشي والاجتماعي

بدلاً من أن يعمل الحكام الأمويون على إصلاح أحوال الناس وتحسين معيشتهم، والتخفيف من معاناتهم، اتجهوا إلى جمع الثروات والأموال، وفرض الضرائب الباهظة التي أثقلت كواهل الرعية فانتشرت الحاجة, وزاد الفقر, وتوزع المجتمع إلى طبقتين: طبقة فاحشة الثراء وهي طبقة الولاة والسلاطين, وطبقة شديد الفقر وهي طبقة بقية الناس.

ولقد روى التأريخ صوراً من ثراء خلفاء بني أمية عموماً وثراء الطاغية هشام الفاحش على وجه الخصوص؛ ولنكتفي هنا بما نُقل من الأخبار عن ثراء هشام؛ لمقام المناسبة والاختصار: روي أن هشام بن عبدالملك جمع من الأموال ما لم يجمعه خليفة قبله؛ وقد وصف أحد من وفد على هشام عرشَه فقال: في دار قوراء مفروشة بالزحام، وهو في مجلس مفروش بالرخام، وبين كل رخامتين قضيب ذهب وحيطانه كذلك، وهشام جالس على طنفسة حمراء، وعليه ثياب خز حمر، وقد تضمخ بالمسك والعنبر، وبين يديه مسك مفتوت في أواني ذهب يقلبه بيده فتفوح روائحه.

كما يروى في التأريخ أن ثياب هشام بن عبدالملك الأموي كانت تُحمل على ستمائة جمل.

ومن الناحية الاجتماعية فقد سعى بنو أمية إلى تدمير القيم وتبديد الأخلاق من قلوب الناس ونشر الفساد والانحلال, ونشروا في أوساط المجتمع ثقافة السطو والنهب، ولم يكتفوا بذلك، بل كانوا يحرضون ولاتهم عليها ويعلمونها أولادهم؛ فيروى أن هشام بن عبد الملك, حين علم أن أحد أولاده كان مولعاً بالفاحشة، وكان قد ولاه حمص فقدم إليه أهلها يشكون فحشه, فعزله عن عمله، وقال له: أيزني القرشي؟ أتدري ما فسق القرشي وفجوره؟ إنما هو أن تأخذ مال هذا فتعطيه هذا، وتقتل هذا وتأخذ مال هذا.

كما سعى بنو أمية لنشر المجون واللهو والرقص والغناء والتشجيع على ذلك, حتى أن أحد أمراء بني أمية استدعى جميع مغني الحجاز وأجازهم بجوائز كثيرة، وأعطى (معبداً) المغني عشرة آلاف دينار, ويروى أن يزيد بن عبدالملك الأموي كان له جارية اسمها حبابة وكانت تغني له وكان يحبها, وفي يوم من الأيام رماها بحبة عنب فوقعت في حلقها فشرقت بها وماتت، فحزن عليها حزناً شديداً, ونبشها بعد الدفن وترك جسدها في القصر حتى أنتن, وقيل أنه مات بعدها بيسير أسفاً عليها.

كما أشعلوا العصبيات القبلية، وأغروا بين القبائل، فقد كان حكمهم قائماً على سياسة التفريق والتشجيع على التناحر, ومن أعظم ذلك ما دار بين القحطانية والعدنانية, والعرب والعجم, كما راج في عصرهم الهجاء, وغير ذلك من العادات التي شجع عليها بنو أمية وتسببت في التقاطع والتدابر, وانتشار العداوات، وتفسخ المجتمع الإسلامي وتمزقه.

الثورة الفكرية

لقد أخذت ثورة الإمام زيد عليه السلام مسارين، مساراً فكرياً ومساراً عسكرياً، فبدأ عليه السلام أولاً بالتحرك في المسار الفكري، فسعى في أوساط الأمة ثقافياً وفكرياً؛ لمواجهة الأفكار الضالة التي حاول بنو أمية نشرها بين المسلمين؛ وقد تجلت ثورته الفكرية في عدة صور؛ نذكر منها:

- نشره للعلم وتدريسه له، فقد كان له (ع) العديد من الطلبة الذين تعلموا على يديه وساهموا في نشر العلم والمعرفة الصحيحة، والذين أصبحوا فيما بعد من علماء الإسلام المشاهير، أمثال أولاده الإمام يحيى بن زيد، والإمام عيسى بن زيد، والحسين بن زيد، وكذا الإمام جعفر الصادق، والإمام عبد الله بن الحسن الكامل، وأبو خالد الواسطي، وأبو حنيفة النعمان، وشعبة بن الحجاج العتكي، ومنصور بن المعتمر، وثابت بن دينار الثمالي، وجابر بن يزيد الجعفي، وسلمان بن مهران الأعمش، وغيرهم كثير.

- قام بتأليف الكثير من الكتب والرسائل، منها رسالته المشهورة إلى علماء الأمة، والتي فيها: (إنما تصلح الأمور على أيدي العلماء، وتفسد بهم إذا باعوا أمر الله تعالى ونهيه بمعاونة الظالمين الجائرين)، ومن أشهر مؤلفاته: المجموع الفقهي والحديثي- ومجموع رسائل الإمام زيد- وتفسير غريب القرآن.

- عقد العديد من اللقاءات والنقاشات مع العلماء، ولم يترك فرصة لتبيين الحق وإزهاق باطل بني أمية إلا واستغلها.

- الالتقاء بالناس القادمين من مختلف الأمصار في مواسم الحج، وأثناء زياراتهم للمدينة المنورة، وكان في كل مرة يعزز فيهم روح التضحية، ويكشف لهم ظلم بني أمية، ويذكرهم بواجبهم في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ومن الأمثلة على ذلك:

ما روي أن عزيزة بنت زكريا بن أبي زائدة قالت: سمعت أبي يقول: لما حججت مررت بالمدينة، فقلت: لو دخلت على زيد بن علي بن الحسين فسلمت عليه، فدخلت عليه فسمعته يتمثل بأبيات وهو يقول:

ومن يطلب المال الممنع بالقنا
يعش ماجداً أو تخترمه المخارم
متى تجمع القلب الذكي وصارماً
وأنفاً حمياً تجتنبك المظالم
وكنتُ إذا قوم غزوني غزوتهم
فهل أنا في ذا يا لهمدان ظالم

فخرجتُ من عنده فمضيت فقضيت حجتي، ثم انصرفت إلى الكوفة، فبلغني قدومه فأتيته فسلمت عليه وسألته عما قدم له، فأخبرني بكتب من كتب إليه يسأله القدوم عليه، فأشرت عليه بالانصراف، فلحقه القوم فردوه.

- دخل زيد بن علي عليهما السلام مسجد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم نصف النهار، في يوم حار من باب السوق، فرآه سعد بن إبراهيم في جماعة من القرشيين قد حان قيامهم، فأشار إليهم فقال لهم سعد بن إبراهيم: هذا زيد يشير إليكم فقوموا له، فجاءهم فقال: أي قوم أنتم أضعف من أهل الحرة، فقالوا: لا، فقال: فأنا أشهد أن يزيد ليس شراً من هشام بن عبد الملك فما لكم؟ فقال سعد لأصحابه: مدة هذا قصيرة. فلم ينشب أن خرج فقتل.

- قال محمد بن يحيى بن عبد الكريم بن شعيب الحجبي: أقبل زيد بن علي بن حسين، فدخل المسجد وفيه نفر من قريش قد لحقتهم الشمس في مجلسهم، فقاموا يريدون التحول، فلما توسط زيد المسجد، خاف أن يعوقوه فحصبهم فوقعوا، فقال لهم: أقتل يزيد بن معاوية حسين بن علي؟ قالوا: نعم، قال: ثم مات يزيد؟ قالوا: نعم، قال: فكأن حياة بينهما لم يكن. قال: فعلم القوم أن زيداً يريد أمرا.

- فرض الخليفة الأموي هشام بن عبدالملك على الإمام زيد (ع) في دمشق إقامة إجبارية لمدة (٥) أشهر، فجعل مِن سِجْنه مدرسةً لتعليم السجناء أمور الدين، وتوضيح معالم الإسلام الصحيحة، فعن أبي غسان الأزدي قال: قدم علينا زيد بن علي إلى الشام أيام هشام بن عبدالملك، فما رأيتُ رجلاً كان أعلم بكتاب الله منه، ولقد حبسه هشام خمسة أشهر يقص علينا ونحن معه في الحبس بتفسير الحمد وسورة البقرة يهذو ذلك هذًّا.

- المناظرات التي كانت بينه وبين مخالفيه، حتى من العلماء المحسوبين على السلطة الأموية، ففي أثناء بقائه في الشام اتفق علماؤها على رجل منهم قد انقاد له أهل الشام في البلاغة والبصر بالحُجج، فجمعوا بينه وبين زيد بن علي، وعند المناظرة تكلم الشامي واعتمد على أن الجماعة هم حجة الله على خلقه، وأن أهل القلة هم أهل البدع والضلالة، وأنه لم تكن جماعة إلا كانوا هم أهل الحق، حتى قتل عثمان، فخرج علي بن أبي طالب باغياً مفرقاً للجماعة، حتى هاجت الفتنة فاقتتلوا حتى رُدَّ هذا الأمر إلى أهل بيت هذا الخليفة المظلوم عثمان - يعني بني أمية-.

قال خالد بن صفوان: فحمد الله زيدُ بن علي وأثنى عليه، وصلَّى على رسوله صلى الله عليه وآله وسلم ثم تكلم بكلام ما سمعنا قرشياً ولا عربياً أبلغ في موعظة، ولا أوضح حجة، ولا أفصح لهجة منه، ثم إن الإمام زيداً ذكر لهم جميع ما يتعلق بالقلة والكثرة من الآيات القرآنية، فإذا هي تمدح القلة وتذم الكثرة.

قال خالد بن صفوان: فبئس الشامي فما أحلى ولا أمر، وسكت الشاميون فلم يجيبوا لا بقليل ولا بكثير، ثم قاموا من عنده، فلما خرجوا قالوا لصاحبهم: فعل الله بك وفعل، عزرتنا وزعمت أنك لا تدع له حجة إلا كسرتها فخرست فلم تنطق! قال: ويلكم كيف أكلم رجلاً إنما حاجني بكتاب الله؟ فلم أستطع أن أكذب كتاب الله.

قال عطاء بن أبي سلمة: فكان خالد بن صفوان يقول بعد ذلك: ما رأيتُ رجلاً قرشياً ولا عربياً يزيد في العقل والحجج والخير على زيد بن علي.

لقد أوتي زيد علماً لدُنياً فاسألوه فإنه يعلم ما لا نعلم.. «الإمام محمد الباقر (ع)»

موعدنا الكناسة

أهداف الثورة

لم تخرج ثورة الإمام زيد (ع) عن المسار الذي سارت عليه ثورة جده الإمام الحسين السبط عليه السلام، وهو الإصلاح في أمة الإسلام. كما صرح بذلك الإمام زيد (ع) في كثير من كلماته التي تجدونها منشورة في هذه المجلة؛ ونستطيع أن نلخص أهداف ثورته عليه السلام في النقاط التالية:

١. إحياء ما اندثر من كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وآله وسلم.
٢. وضع حد لتمادي ملوك بني أمية في الاستهتار بالدين، حتى وصل بهم الحال إلى أن يقوم حاكمهم الطاغية هشام بن عبد الملك خطيباً في بيت الله الحرام، ويقسم أنه سيقطع رأس من يقول له: اتقِ الله.
٣. تحقيق العدالة العامة، بنشر العدل بين الناس ودفع الظلم عنهم.
٤. بيان شرعية الخروج على الظالم.
٥. صيانة حرمات ومقدسات الإسلام، وترسيخ عظمة الدين الحنيف في قلوب المسلمين بعد أن أسقطها الأمويون، حتى سبَّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، واستهزئ به في حضرة خلفائهم، ولم يكن منهم مُنْكِرٌ؛ قال الإمام زيد(ع) عن ذلك: ((شهدت هشاماً وعنده رجل يسبُّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فقلت للساب: ويلك يا كافر، أما إني لو تمكنت منك لأختطفن روحك، وعجلتك إلى النار. فقال لي هشام: مَهٍ عن جليسنا يا زيد!!. فوالله لو لم يكن إلا أنا وابني يحيى لخرجت وجاهدت حتى أفنى)).
٦. الدفاع عن المساكين والمستضعفين والمحرومين.

التخطيط للثورة

(البداية من المدينة المنورة)

حينما رأى الإمام زيد عليه السلام أن دين الله قد بُدِّلَ، وأن بني أمية قد طغوا وتجبروا في الأرض، دعا كبار أهل البيت عليهم السلام في المدينة النبوية المشرفة، وقال لهم: ((يا بني هاشم والله إني لا أعلم أحداً أوفرّ حظاً من حظكم، فقد خصكم الله أن تكونوا ذرية نبيه، وقرناء كتابه، وها هو كتاب الله لا يُعمل به، وها هي سنة رسول الله يزاد فيها وينقص. ونحن في المدينة ليس فينا من يأمر بمعروف وينهى عن منكر، وقد أتاني بعض المخلصين من أهل العراق يدعونني للخروج اليهم. وأنا أرى أن نخرج إلى العراق لزيارة أمير المؤمنين علي عليه السلام والحسين بن علي عليه السلام وأصحابهم والالتقاء بعلماء العراقين والإصلاح ما استطعنا)).

الرحلة الأولى إلى الكوفة

توجه الإمام زيد (ع) ومن معه من أهل بيته من المدينة المنورة إلى العراق. فما أن وصل حتى تسابق أهل العلم والفضل لاستقباله والاستفادة منه، وحظي في العراق باستقبال كبير، فقد كان أهلها يميلون إلى أهل البيت (ع)، وفيهم من الشخصيات الاجتماعية من يُعوَّل عليهم، ولديهم الجرأة على المعارضة والوقوف ضدَّ بني أمية، أمثال: نصر بن خزيمة، ومعاوية بن اسحاق، وغيرهم.

لبث الإمام عليه السلام أياماً في الكوفة أملاً في أن تتهيأ له فرصة القيام بالثورة، ولكن الأمر لم يتهيأ له؛ وذلك أن رجال الاستخبارات الأموية كانت تتبع تحركات أهل البيت عليهم السلام وشيعتهم، وتسعى بكل الوسائل لإفشال أي تحرك لهم، فلما رأى الإمام زيد (ع) ذلك قرر العودة إلى المدينة المنورة.

أما والله لقد كنت أستحي من رسول الله أن أرد عليه ولم آمر في أمته بمعروف ولم أنه عن منكر

عودة الإمام الى المدينة النبوية

عاد الإمام زيد (ع) مع أصحابه إلى مدينة جده رسول الله صلى الله عليه و آله وسلم، وفي المدينة المنورة تعرض عليه السلام للمضايقات من قبل والي المدينة الذي أوكل إليه الخليفة الأموي هشام بن عبدالملك ذلك. وحين وجد الوالي على المدينة أن زيد بن علي جبل شامخ لا تثنيه المضايقات، وعرف عجزه عن إخضاعه كتب إلى هشام: إن زيداً قد أفسد عليك المدينة، فكان الأمر من هشام أن يشغلوا الإمام زيداً (ع) عن غايته الكبرى في القيام بالثورة، فحاولوا أن يزرعوا الخلافات بينه (ع) وبين بعض بني عمومته؛ ليشعلوا بذلك فتيل فتنة تثور بين طرفين كليهما يشكل مصدر رعب وقلق لهم، فيكون كما يقال: (يضرب عصفورين بحجر)، فيقف هشام موقف المتفرج والناصح ويُكْفَى المؤنة، ولكن الإمام زيداً وبني عمه عليهم السلام تنبهوا لذلك، فقدموا مشهداً عظيماً في التنازل والإيثار.....، بعد ذلك زادت مضايقات والي المدينة للمستضعفين عموماً ولأهل البيت عليهم السلام على وجه الخصوص.

وداع زيد لقبر جده المصطفى

بعد أن اشتدت المضايقات من والي المدينة قرر الإمام زيد (ع) أن يخرج إلى الشام؛ ليُسمع هشام الطاغية كلمة الحق، وصيحة الصدق، وقبل مغادرته المدينة ذهب إلى المسجد النبوي؛ ليودع قبر جده رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فصلى فيه ما شاء الله، ثم وقف مبتهلاً، فقال: ((اللَهُمَّ إنَّك تَعْلَمُ أني مُكْرَهٌ مَجْبُورٌ مضطرٌ غيرُ مختارٍ، ولا مالك لنفسي، اللَهُمَّ واكفني كَيْدَهُ وألبِسْنِي جُبَّةَ عِزّ لكيلا أخشعَ لسلطانِه، ولا أرهب من جنوده، اللَهُمَّ وابسُط لِساني عليه بإعزاز الحقِّ ونُصْرَتِه، كي أقولَ قولَ الحقِّ ولا تأخُذنِي لومةُ لائم، ولا إذلالُ الجبَّارين، اللَهُمَّ واجْمَعْ قَلْبِي عَلَى هِدَايتِكَ، وأرني من إعزازِكَ إياي ما يَصْغُرُ به عندي مُلْكُه، وتَذِلُّ لي نَخْوَتُه، اللَهُمَّ فاطْرَحِ الهيبة في قَلْبِه وذَلِّلْ لي نفسه، واحْبِسْ عَنِّي كَيْدَهُ)).

ثم أتى قبرَ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فصلى إلى جَنْبِه، ثم انصرف من صلاته، فقال: ((السَّلام عليكَ يا رسول الله، السلام عليك يا نبي الله، السلام عليك يا خيرة الأنبياء وأشرف الرسل، السلام عليك يا حبيب الله، هذا آخر عهدي بمدينتك، وآخر عهدي بقبرك ومنبرك، أخْرِجْتُ يا أبَهْ كارهاً، وسِرْتُ في البلاد أسيراً يا رسول الله، وإني سائلك الشفاعة إلى الله عز وجل، وأن يُؤَيِّدَنِي بِثِقَةِ اليقين، وعِزِّ التقوى، وأن يختم لي بشهادة تلحقني بآبائي الأكرمين وأهلي الطاهرين)).

خروج الإمام زيد إلى الشام

وبعد رحلة مشقة وعناء وصل الإمام(ع) إلى الشام، وأبلغ الإمارة بأنه يريد مقابلة هشام، وكما هو دأب الولاة السفهاء في التجاهل لأولي الفضل، وغمط مكانتهم، وانتقاص قدرهم، تجاهل هشام الإمام (ع)، وفرض عليه إقامة جبرية في الرصافة، يقال أنها استمرت خمسة أشهر، ولما علم علماء الشام بمقام الإمام زيد (ع) في الرصافة أقبلوا إليه يغترفون من علومه، فحولَّ الإمام زيد الرصافةَ من دار إقامة جبرية إلى مدرسة علمية، وألقى فيها دروساً في التفسير وغيره، وأرسل إليه هشام من علماء الشام من يناظره، لكن الإمام زيداً (ع) بمنطقه القرآني استطاع أن يخرسهم، ويجعلهم يذعنون - ولو كرهاً- لمنطق الحق، فكان عليه السلام بذلك خلفاً لنبي الله يوسف عليه السلام حين جعل من السجن مدرسة إيمانية تخرج منها الصالحون.

الإمام زيد في وجه هشام

خاف هشام بن عبدالملك من بقاء الإمام زيد (ع) في الإقامة الجبرية أن يفسد عليه أهل الشام، فأراد أن يتخلص منه ويبعده عن مركز إمارته، فأذِن له بالدخول عليه، وقد أمر أعوانه وحاشيته بالتزاحم في المجلس وعدم الاهتمام لمقدم الإمام (ع)، فلما دخل الإمام زيد(ع) سَلَّم على من في المجلس، فتجاهله هشام ومن بحضرته، فوجّه سلاماً خاصاً إلى هشام قائلاً له: السلام عليك يا أحول، فإنّك ترى نفسك أهلاً لهذا الاسم، فصاح به: ما يصنع أخوك البقرة؟ فقال الإمام زيد(ع): سمَّاه رسول الله الباقر، وأنت تسمّيه البقرة، لشدَّ ما اختلفتما فيدخل الجنَّة وتدخل النار.

وقد سبق أن هشاماً كان قد خطب على منبر مكة وأقسم أنه لا يأمره أحد بتقوى الله إلا ضربه بالسيف، وهنا كان على الإمام زيد(ع) أن يسقط هذه الغطرسة، فوقف أمام هذا الطاغية، وقال له: ((اتق الله يا هشام!)).

سقطت تلك الكلمات على هشام كالصاعقة، فقال في حنق: ومثلك يأمر مثلي بتقوى الله؟! فردَّ عليه الإمام زيد(ع) بكل رباطة جأش وبمنطق الحق: ((يا هشام إن الله لم يرفع أحداً فوق أن يُؤمَر بتقوى الله، ولم يضع أحداً دون أن يَأمُر بتقوى الله!!)).

فقال هشام: بلغني أنك تذكر الخلافة وتتمنَّاها، ولستَ أهلاً لها لأنك ابن أَمَةٍ. فانبرى إليه زيد، فسدد له سهماً من منطقه الفياض، فأطاح بغلوائه وكبريائه فقال له: ((إنّ الأمهات لا يقعدن بالرجال عن الغايات، لقد كانت أمُّ إسماعيل أمة لأمَ إسحاق، فلم يمنعه ذلك أن بعثه الله تعالى نَبياً وجعله أباً للعرب، وأخرج من صلبه خير الأنبياء محمَّداً)).

وزعزعت هذه الكلمات عرش الطاغية وأفقدته صوابه، فأمر جلاوزته بإخراج زيد من مجلسه، فأُخرِجَ وهشام يتابعه بعينه الحولاء وهو يتميز من الغيظ، وزيد يقول له: ((والله لن تراني إلا حيث تكره)). وأدلى بما صمَّم عليه قائلاً: ((ما كره قوم حرَّ السيوف إلاّ ذلُّوا)).

فطفق هشام يقول لمن في مجلسه: ألستم زعمتم أنَّ أهل هذا البيت - يعني البيت العلوي - قد بادوا، فلعمري ما انقرض من مثل هذا - يعني زيداً- خلَفهم.

الإمام زيد في الكوفة

سرَّح هشام الإمام زيداً عليه

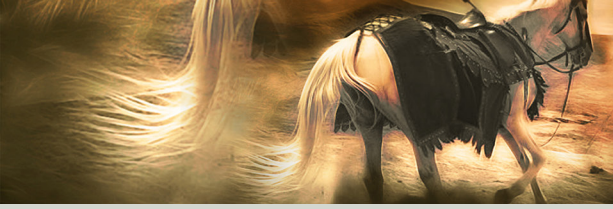

السلام إلى والي العراق يوسف بن عمر؛ ليتدبر أمره، وكتب هشام إلى يوسف: إذا قدم عليك زيد بن علي فاجمع بينه وبين خالد، ولا يقيمن قبلك ساعة واحدة، فإني رأيته رجلاً حلو اللسان، شديد البيان، خليقاً بتمويه الكلام، وأهل العراق أسرع شيء إلى مثله.

وفور وصول الإمام زيد إلى الكوفة أدخل على واليها الجديد يوسف بن عمر، وكان هذا الوالي قد عذب خالداً القسري في الأموال التي أخذها من أهل العراق, فادعى خالد أن تلك الأموال ودائع عند رجال منهم الإمام زيد، فطالب يوسف بن عمر أولئك الرجال بذلك المال، فأنكر الإمام (ع) ذلك, فأخذ يوسف يهدده ويتوعده، فقال له الإمام زيد (ع): ((دعني من إبراقك وإرعادك، فلستُ ممن في يديك تعذبهم كما تشاء، واحملني على كتاب الله وسنة نبيه لا على سنتك وسنة هشام)). فأحضر الوالي خالداً القسري، وقال له: هذا زيد بن علي، فاذكر ما لَك عنده.

فقال خالد: والله الذي لا إله إلا هو ما لي عنده قليل ولا كثير، ولا أردتم بإحضاره إلا ظلمه.

فقال يوسف: أبي كنتَ تهزأ أمْ بأمير المؤمنين؟

فقال خالد: لا ولكن استرحت إلى قولي، وقلت تمسك عن عذابي إلى أن يكتب بحمل من حمل, فعذبه حتى ظن أنه قد قتله.

عزم الإمام على العودة إلى المدينة

لم يهدأ بال الوالي الجديد يوسف بن عمر من بقاء الإمام زيد(ع) في الكوفة، فقال له: إن أمير المؤمنين أمرني أن أخرجك من الكوفة ساعة قدومك! فقال الإمام (ع): فأستريح ثلاثاً، ثم أخرج؟ فقال له يوسف: مالي إلى ذلك سبيل. قال: فيومي هذا قال: ولا ساعة واحدة. فخرج الإمام زيد (ع) ومعه رسل وعيون يوسف، وهو يتمثل بهذه الأبيات:

مُنْخَرق الخفّين يشكو الوجى
تنكبه أطراف مَروٍ حداد
شرَّده الخوف وأزْرَى به
كذاك من يكره حَرَّ الجِلاد
قد كان في الموتِ له راحة
والموت حتم في رقابِ العباد

وصوله إلى القادسية

حين علم أنصار الإمام زيد(ع) وشيعته بخروجه من الكوفة تبعوه حتى فارقته رسل وعيون والي الكوفة بمنطقة القادسية (العذِيب)، فتقدموا إليه وقالوا له: أين تذهب يا بن رسول الله وتذر الكوفة، ولك بها مائة ألف سيف يقاتلون عنك بني مروان؟ ننشدك الله إلا ما رجعت، فلم يزالوا به حتى استجاب لهم، وعاد معهم بعد أن أعطوه العهود والمواثيق.

كان برفقة الإمام زيد عليه السلام في رحلته تلك عبدالله بن محمد بن عمر بن علي بن أبي طالب, فقال الإمام زيد لغلمانه, حين سمع كلام أنصاره: اعزلوا متاعي من متاع ابن عمي.

فقال له عبدالله: ولم ذاك أصلحك الله؟

فقال الإمام زيد (ع): أجاهد بني أمية, والله لو أعلم أنه تؤجج لي نار بالحطب الجزل, فأقذف فيها وأن الله أصلح لهذه الأمة أمرها لفعلت.

فقال عبدالله: الله الله في قوم خذلوا جدك وأهل بيتك!

فأنشأ يقول:

فإن أقتل فلست بذي خلود وإن أبقر اشتفيت من العبيد

ثم أخذ متاعه وانطلق إلى الكوفة.

عودة الإمام زيد إلى الكوفة

عاد الإمام زيد (ع) إلى الكوفة متخفياً، فنزل في دار نصر بن خزيمة, ثم تحول إلى دار معاوية بن إسحاق في جبانة سالم, وفي مدة قعوده في الكوفة - والتي استمرت بضعة عشر شهراً- بدأ عليه السلام بجمع نخبة من العلماء والفرسان ورؤساء العشائر الذين يتمتعون بمواصفات خلقية رفيعة، وشكَّلَ منهم فريق الدعاة الذين نشرهم في الآفاق لأخذ البيعة له، كما ذهب عليه السلام خلال تلك الفترة إلى البصرة في سبيل تهيئة الأمور، وأخذ البيعة من أهلها، وكان تحرك الإمام زيد (ع) في تلك الفترة تحركاً سرياً يهدف إلى تهيئة الثورة للنجاح، ومع أن الإمام زيداً (ع) كان في هذا الوقت أحوج ما يكون إلى من ينصره ويعينه في حركته إلا أنه كان يتحاشى أن يأخذ البيعة من حديثي السن، وهذا أبو معمر خير شاهد على ذلك، فقد جاء في التأريخ عنه أنه قال: أتيت زيد بن علي صلى الله عليه فقلت له : ابسط يديك بايعك، فقال لي: لا. قلت: ولم؟ قال: إنك حدث، أخاف أن أحمّلك ما لا تطيق فتأثم، قال: قلت: أسألك بحق الله وحق رسوله إلا بايعتني، قال: ابسط يدك فبسطت يدي، فقال: عليك عهد الله وميثاقه وذمته وكفالته، وما أخذ الله على النبيين من عهد أو ميثاق أو ذمة أو كفالة، لتصبرن معنا على الموت على قتال عدونا لا تولي دبر حتى يحكم الله بيننا وبين عدونا، وهو خير الحاكمين. قال: قلت: نعم؛ قال: فقال لي زيد بن علي: ولك علينا مثل ذلك،أن تصبر معك على الموت، على قتال عدونا لا نولي دبرا حتى يحكم الله بيننا وبين عدونا، وهو خير الحاكمين.

وكذلك لم تكن قيم الإمام زيد (ع) تقبل أن يأخذ البيعة من المماليك إلا بإذن مالكيهم، فالعبد السندي الذي أخبر عن موضع قبر الإمام زيد (ع)، كان قد أتى إلى الإمام (ع) من أول النهار، في قوم أتوه، ليقاتل معه، فلم يقبله زيد، وقال: لا يقاتل مملوك بغير إذن مولاه، فدل على قبره بعد دفنه.

لا تقولوا خرجنا غضباً لكم، ولكن قولوا: خرجنا غضباً لله ودينه..

ثورة الفقهاء

عرفت ثورة الإمام زيد (ع) بثورة الفقهاء والعلماء؛ وذلك لأن غالبية من ناصروه عليه السلام ودعوا إليه وقاتلوا معه من كبار العلماء والقراء والمحدثين، وقد قال المؤرخ أبو زهرة عن ذلك: «ولقد كان العلماء يعتبرون ثورة زيد على الطغيان الأموي ثورة أهل العلم والزهادة والنسك عليهم، حتى أن بعض المؤرخين يذكر أن الذين قاتلوا مع زيد كانوا من القراء والفقهاء.. وقد كان سفيان الثوري محدث الكوفة وواعظها إذا ذكر زيداً بكى على ما فقده العلم بفقده، وعلى ما فقده التقى والفضل بإصابته»، ومما يدل على هذه المؤازرة والمساندة كلام مالك بن أنس: (وزيد قد رأيت أنه عندما خرج ما شد أزره إلا الفقهاء والقراء)؛ وإليكم صور من هذه المناصرة له عليه السلام:

- بعث الإمام زيد الفضلَ بن الزبير وأبا الجارود إلى أبي حنيفة النعمان، فوصلا إليه وهو مريض، فدعياه إلى نصرته، فقال: هو والله صاحب حق، وهو أعلم مَنْ نعرف في هذا الزمان، فأقرآه مني السلام وأخبراه أن مرضاً يمنعني من الخروج معه. ثم أرسل معهما بثلاثين ألف درهم للإمام زيد يستعين بها على جهاده، وقال: لئن شفيت لأخرجن معه.

- بعثَ الإمام زيد عليه السلام الحافظ الكبير والمحدث الشهير منصور بن المعتمر السلمي إلى العلماء، فكان يدخل عليهم وهو يعصر عينيه ويبكي ويقول: أجيبوا ابن رسول الله.

- بعثَ الإمام زيد عليه السلام عثمانَ بن عمير الفقيه إلى الأعمش ومن يتردد عليه من العلماء، فلما وصل إليه وعرض عليه رسالة الإمام زيد قال: ما أعرفني بفضله. أقرئه مني السلام، وقل له: يقول لك الأعمش: لست أثق لك. جعلت فداك. بالناس، ولو أنا وجدنا لك ثلاثمائة رجل نثق بهم لعَفَّرْنا لك حواجبنا. وقال شعبة: سمعت الأعمش يقول: والله لولا ضُرة بي لخرجت معه، والله ليُسْلِمُنَّه كما فعلوا بجده وعمه.

- قال سليمان الرازي: لم أرَ يوماً كان أبهى ولا أكثر جموعاً ولا أوفر سلاحاً ولا أشد رجالاً ولا أكثر قرآناً وفقهاً من أصحاب زيد بن علي.

ثورة أمة لا ثورة مذهب

لأن منطلقات ثورة الإمام زيد عليه السلام منطلقات جامعة. فقد كانت ثورته عليه السلام محل إجماع من الأمة الإسلامية بمختلف مذاهبها. فحظيت بتأييد غير مسبوق من كل شرائح المجتمع، حتى أحصى ديوانه عليه السلام ما يقارب ثمانين ألفاً. وهذا يدل على أن فكر ونهج الإمام زيد عليه السلام هو نقطة الاجتماع والتوحد التي تلم شمل الأمة الإسلامية، وتوحد فِرَقِهَا، وتجمع شتاتها.

قال السيد أبو طالب عليه السلام في كتاب الدعامة: (لما شهر فضله وتقدمه وظهر علمه وبراعته، وعُرف كماله الذي تقدم به أهل عصره اجتمع طوائف الناس على اختلاف آرائهم على مبايعته فلم يكن الزيدي أحرص عليها من المعتزلي، ولا المعتزلي أسرع إليها من المرجي، ولا المرجي من الخارجي، فكانت بيعته عليه السلام مشتملة على فرق الأمة مع اختلافها، ولم يشذ عنها إلا هذه الطائفة القليلة التوفيق). يقصد الرافضة.

نص بيعته عليه السلام

كانت بيعة الإمام زيد عليه السلام التي يأخذها على الناس، أنه يبدأ فيقول: إنا ندعوكم أيها الناس إلى كتاب الله، وسنة نبيئه صلى الله عليه وآله وسلم، وإلى جهاد الظالمين، والدفع عن المستضعفين، وقسم الفيء بين أهله، ورد المظالم، ونصرنا أهل البيت على من نصب لنا الحرب، أتبايعونا على هذا؟

فإن قالوا: نعم؛ وضع يد الرجل على يده، فيقول: عليك عهد الله وميثاقه وذمته وذمة رسوله لتفين ببيعتي، ولتقاتلن عدونا، ولتنصحن لنا في السر والعلانية، فإذا قال: نعم؛ مسح يده على يده ، ثم قال: اللهم اشهد..

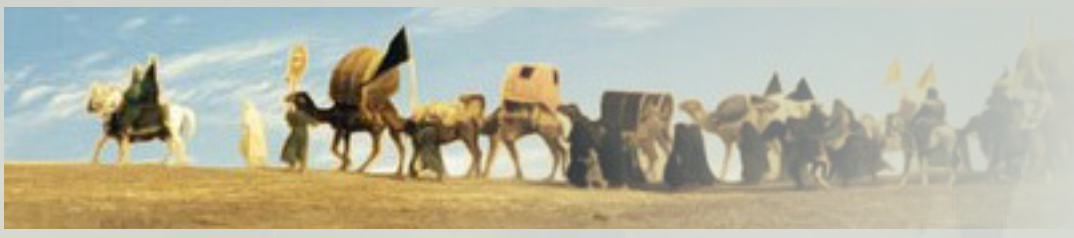

والله ما خرجت لغرض الدنيا ولا لجمع مال، ولكن خرجت ابتغاء وجه الله والتقرب إليه

انطلاق الثورة

بعد مدة تتجاوز العام قضاها الإمام زيد عليه السلام في الكوفة والبصرة, يحضر للثورة ويأخذ البيعة, حدد عليه السلام غرة صفر من سنة (١٢٢هـ) موعداً لانطلاق الثورة, وكان الإمام عليه السلام قد حاول أن يحيط تحركه بالسرية التامة حتى لا تجهض الثورة في مهدها, ولكن جواسيس السلطة الأموية كانت قد تسربت إليها أخبار الثورة، وموعد الخروج.

• فيروي التأريخ أن رجلاً من أهل الكوفة يقال له سليمان بن سراقة البارقي ذهب إلى يوسف بن عمر فأخبره بخبر الإمام (ع)، فقال له يوسف بن عمر: ويحك فكيف علمت بذلك؟ فقال: لأنه خبرني الصدوق أنه قد بايعه الناس على ذلك، ووجه بكتبه إلى أهل السواد يواعدهم بالخروج.

• أخبر البارقي يوسف بن عمر بأن الإمام زيداً في دار رجلين من الكوفة، فبعث يوسف في طلب زيد ليلاً، فلم يجده في تلك الدار فقبضوا على الرجلين وأتي بهما إلى يوسف، فلما كلمهما تأكد واستبان له أمر الإمام زيد عليه السلام وأمر بهما فضربت أعناقهما. فلمّا علم الإمام زيد عليه السلام بذلك, وأن موعد الثورة قد تسرب إلى السلطات الأموية, حاول أن ينقذ الثورة من أن تضرب في مهدها, فقرر أن يقدم موعد الثورة, فكان يوم الأربعاء الموافق ٢٣ محرم موعداً لانطلاق الثورة المباركة.

أيام المواجهة

بدأت الأحداث تتسارع، واستشعر بنو أمية اقتراب الخطر، ففي ليلة الثلاثاء الموافق ٢٢ محرم سنة ١٢٢هـ أمر يوسف بن عمر - وهو أمير العراق- قائد شرطته الحكم بن الصلت بجمع أهل الكوفة في المسجد الأعظم فيحصرهم فيه، فبعث الحكم إلى العرفاء والشرط والمناكب والمقاتلة بأن يجمعوا أهل الكوفة في المسجد، ثم نادى مناديه: أيما رجل من العرب والموالي أدركناه في رحلة الليلة فقد برأت منه الذمة، ائتوا المسجد الأعظم، وفي يوم الثلاثاء أقبل الناس إلى المسجد، وبقوا محصورين فيه.

ليلة الأربعاء

في ليلة الأربعاء ٢٣ محرم - وكانت ليلة شديدة البرد- خرج الإمام زيد بن علي (ع) من دار معاوية بن إسحاق بين أصحابه راكباً على بغلة شهباء، يلبس قباء أبيض، تحته درع، مُعْتَمّاً بعمامة سوداء، ومعه سيف ودَرَقَة، وبين يديه مصحف، فوقف وقال: ((أيها الناس أعينوني على أنباط أهل الشام، فوالله لا يعينني عليهم أحد إلا رجوت له أن يجيء يوم القيامة آمناً حتى يجاوز الصراط ويدخل الجنة, ثم قال: سلوني، فوالله ما تسألوني عن حلال أو حرام، أو محكم أو متشابه، أو ناسخ أو منسوخ، أو أمثال أو قصص، إلا أنبأتكم به، والله ما وقفت هذا الموقف ولا قمت مقامي هذا حتى قرأت القرآن، وأتقنت الفرائض والأحكام، والسنن والآداب، وعرفت التأويل كما عرفت التنزيل، وفهمت الناسخ والمنسوخ، والمحكم والمتشابه، والخاص والعام، وأنا أعلم أهل بيتي بما تحتاج إليه الأمة، وأنا على بصيرة من ربي)).

وكان يتمثل بهذين البيتين:

إن المحكم ما لم يرتقب حسداً
لو يرهب السيف أو وخز القنا هتفا
من عاذ بالسيف لاقى فرجة عجبا
موتاً على عجل أو عاش فانتصفا

وكان أصحاب الإمام زيد (ع) يحملون الهرادي (القصب) فيها النيران, ويصيحون بشعار الإمام (يا منصور أمت)، نظر الإمام (ع) إلى أصحابه فوجدهم قلة, فبعث أحد قادته (القاسم بن كثير), ومعه رجل آخر؛ لينادي في شوارع الكوفة بشعاره: (يا منصور أمت), ليعلن للناس بدء المعركة.

أول شهيد في المعركة

كان يوسف بن عمر قد ألقى القبض على أحد رسل الإمام زيد(ع), وقام بقتله كأول شهيد للثورة, ولكن القاسم بن كثير يعتبر أول شهيد

السيف يعرف عزمي عند هبته ** والرمح بي خبر والله لي وزر

في المعركة. فبعد أن نادى في شوارع الكوفة بشعار الثورة. اعترضته كتيبة من جند الأمويين بقيادة العباس بن جعفر الكندي. فقاتلهم قتال الأبطال حتى جُرح وسقط على الأرض، ثم أُخِذ إلى يوسف بن عمر، فأمر بضرب عنقه، فكان رحمه الله أول شهداء المواجهة.

صبيحة الأربعاء

في يوم الأربعاء حدثت وقائع مهمة في مسار المواجهة بين الإمام زيد وبني أمية. كان الفارق العددي بين الجيشين كبيراً، فجيش الإمام زيد (ع) كان قرابة مائتين وثمانية عشر مقاتل وفق بعض الروايات. في مقابل جيش بني أمية بقيادة يوسف بن عمر الذي كان قوامه اثني عشر ألفاً على أقل التقديرات.

كان يوم الأربعاء حافلاً بكثير من الأحداث، والتي نستطيع أن نوجزها في العناوين التالية:

نصر بن خزيمة وتشكيلة الجيش

كان نصر بن خزيمة خارج الكوفة عند خروج الإمام زيد (ع)، فانطلق بمن معه من الرجال ملتحقاً بجيش الإمام(ع). فاستبشر الإمام بقدومه، واشتدت عزائم المجاهدين به.

بدأ الإمام بتشكيلة جيشه، التي كان قوامه كما في بعض الروايات (٢١٨) مقاتلاً فقط. فجعل الإمام (ع) نصرَ بن خزيمة قائداً على الميمنة. ومعاوية بن إسحاق على الميسرة. في جيش يقول سليمان الرازي في وصفه: ((لم أرَ يوماً كان أبهى ولا أكثر جموعاً ولا أوفر سلاحاً ولا أشد رجالاً ولا أكثر قرآناً وفقهاً من أصحاب زيد بن علي)).

اكتمال الدين

رفرفت رايات الجهاد على رأس ذلك الجيش القليل العدد. الكثير الإيمان، القوي العزيمة، النافذ البصيرة. وبدأ الإمام زيد(ع) ينظر إلى ذلك المشهد الذي طال ما انتظره. فانطلقت شفتاه عليه السلام قائلاً: ((الحمد لله الذي أكمل لي ديني أما والله لقد كنت أستحي من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أن أَردَ عليه ولم آمر في أمته بمعروف ولم أنه عن منكر))، ثم نظر إلى أصحابه، وقال: ((والله ما أبالي إذا أقمت كتاب الله وسنة نبيه أن تأجج لي نار، ثم قُذفت فيها، ثم صرت بعد ذلك إلى رحمة الله، والله لا ينصرني أحد إلا كان في الرفيق الأعلى مع محمد وعلي وفاطمة والحسن والحسين عليهم السلام.. يا معاشر الفقهاء ويا أهل الحجا أنا حجة الله عليكم هذه يدي مع أيديكم على أن نقيم حدود الله ونعمل بكتاب الله، ونقسم بينكم فيئكم بالسوية...)).

ثم قال عليه السلام: ((اللهم لك خرجت، وإياك أردت، ورضوانك طلبت، ولعدوك نصبت، فانتصر لنفسك ولدينك ولكتابك ولنبيك ولأهل بيتك ولأوليائك من المؤمنين، اللهم هذا الجهد مني وأنت المستعان)).

وقال عليه السلام- والمصحف منشور بين يديه- : ((سلوني، فوالله ما تسألوني عن حلال وحرام، ومحكم ومتشابه، وناسخ ومنسوخ، وأمثال وقصص، إلا أنبأتكم به، والله ما وقفت هذا الموقف إلا وأنا أعلم أهل بيتي بما تحتاج إليه هذه الأمة)).

غدر أهل الكوفة

حصر ديوان الإمام زيد (ع) ٨٠ ألفاً ممن بايعوه. ولكن لم تُفتح عين الثورة إلا عن خمسة آلاف فقط. وفي نفس الوقت لم يكن جميع هؤلاء الخمسة الآلاف أصحاب عقائد راسخة؛ ليثبتوا أمام جيش بني أمية. فقد جمع يوسف بن عمر قائد جيوش هشام الكثير منهم في المسجد يوم الثلاثاء كما أسلفنا. وأعلن حظر تجوال في المدينة، ومنع من حمل السلاح. حتى لم يبق مع الإمام زيد إلا ما يقارب (٢١٨) مقاتلاً. وهذا في بادئ الأمر، ثم تلاحقوا حتى كان قوام جيشه عليه السلام خمسمائة مقاتل.

لم يكن الإمام زيد (ع) ليترك لأولئك المعذرين مبرراً لتخاذلهم عنه، فتوجه مع أنصاره لرفع الحصار عنهم. ووصل إلى جوار المسجد ونادى أصحابه بشعاره وأدخلوا الرايات من نوافذ المسجد، وكان نصر بن خزيمة رحمه الله ينادي: ((يا أهل الكوفة اخرجوا من الذل إلى العز، ومن الضلال إلى الهدى، اخرجوا إلى خير الدنيا والآخرة، فإنكم لستم على واحد منها)).

عند ذلك التفت الإمام زيد(ع) إلى نصر بن خزيمة، فقال له: يا نصر أخاف أهل الكوفة أن يكونوا قد فعلوها حسينية! فقال نصر: جعلني الله فداك أمَّا أنا فوالله لأضربن بسيفي بين يديك حتى أموت!!

بشائر النصر

أمر الإمام زيد أصحابه أن ينتشروا في الكوفة وينادوا: أن من ألقى سلاحه فهو آمن.

ثم انطلق الإمام زيد إلى الكناسة. فحمل على من فيها من جند أهل الشام. ثم اتجه إلى الجبانة (جبانة الصائدين)، وفيها أكثر من (٧٠٠) من الجند الأموي فحمل عليهم الإمام فهزمهم. ويوسف بن عمر قائد الجيش الأموي على التل. يقول الراوي: فرأيته - أي الإمام زيد- يشد عليهم كأنه الليث.

وكان يوم الأربعاء يوماً حافلاً بالمعارك والتحم الجيشان فيه مرات ومرات. وفي أكثر من نقطة، وكانت الحرب أشبه ما تكون بحرب شوارع. واستبسل الإمام (ع) وأصحابه أيما استبسال. فالإمام زيد (ع) هو الوَثَّابُ في صولاتهِ وجولاته مُحتزاً للرؤوس هاتفاً: ((والله لوكنتُ أعلمُ عملاً أرضى لله من قتالِ هؤلاءِ لفعلته))، ضارباً بيدٍ حُسينية حيدرية تستلهمُ القبسَ من عنفوانِ رسول الله، مُقارعةً لأكابرِ المجرمين، وكذلك كان رجاله الأبطال.

وانجلت معركة يوم الأربعاء عن (٢٠٠٠) قتيل من الجيش الأموي. وكانت معظم المواجهات بين الحيرة والكوفة، فقسم الإمام زيد جيشه إلى فرقتين: فرقة تواجه الجيش الأموي القادم من الحيرة. وفرقة تواجه الجيش الأموي المتواجد في الكوفة.

يوم الخميس

وبعد أن كانت المواجهات طيلة يوم الأربعاء. جاء يوم الخميس لتكون المواجهات أكثر تضحية واستبسالاً، ففيه كان للإمام زيد عليه السلام وأصحابه مواقف بطولية خلدها التأريخ، فقد قاتلوا قتال المستميتين، فكانت ملامح النصر تخطوا إليهم. وبوارق الفتح تلوح أمامهم.

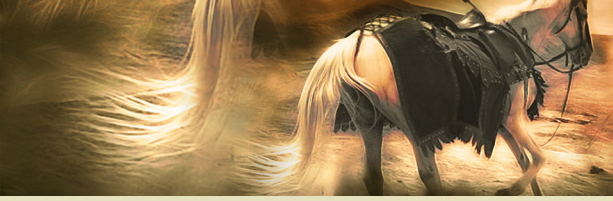

ليلة الجمعة

مضى يوم الخميس، وكان يوماً دامياً على جيش هشام بن عبدالملك، فقد انجلت معاركه عن (٢٠٠) قتيل من الجيش الأموي، لكن الجراحة كانت قد كثرت - أيضاً- في أصحاب الإمام زيد (ع)، فأمر عليه السلام أصحابه أن يحيوا ليلة الجمعة بالصلاة والتهجد وقراءة القرآن والتضرع إلى الله تعالى، وقال لهم: ((وأنا أعلم والله إنه ما أمسى على وجه الأرض عصابة أنصح لله ولرسوله وللإسلام منكم)).

وأمضى الإمام (ع) ليلته تلك في مناجاة وتهجد، وكان يدعو الله تعالى ويقول: ((اللهم إن هؤلاء يقاتلون عدوك وعدو رسولك ودينك الذي ارتضيته لعبادك فاجزهم أفضل ما جزيت أحداً من عبادك المؤمنين)).

يوم الجمعة

جاء يوم الجمعة وقد كثرت الجراح في أصحاب الإمام زيد عليه السلام، واستبان الوهَن، وترك ضعاف الإيمان المعركة، فقد روي أنه لم يزل أهل الكوفة يخرج الواحد منهم إلى أخيه، والمرأة إلى زوجها، والبنت إلى أبيها، والصديق إلى صديقه، فيبكي عليه حتى يرده، فأمسى الإمام (ع) وقد رقَّ عسكره، وخذله كثير ممن كان معه، وثبت معه أهل البصائر الذين ما انفكوا يسقون الأعداء كؤوس الموت، حتى قهروهم وهزموهم، فتراجع الأمويون وعلموا أنه لا قدرة لهم على المواجهة، فتحصنوا خلف الكثب والجدران، واستنجد العباس بن سعد بقائد جيش هشام يوسف بن عمر وشكى إليه ما ناله من الزيدية، وسأله أن يبعث إليه بالناشبة (رماة السهام)، فبعث إليه سليمانَ بن كيسان وكان قائداً على كتيبة الناشبة، وكانوا جميعهم من القيقانية وهم بخارية (نسبة إلى بخارى مدينة في خرسان)، وعددهم (٢٣٠٠) رام، فجعلوا يمطرون جيش الإمام (ع) بوابل من السهام.

المصاب الأليم

كان عدد من ثبتوا مع الإمام زيد (ع) لا يتجاوز ٥٠٠ مجاهد، وقد نال الإمام (ع) الحزن والأسى على فقدان أشجع فرسانه، فقد استشهد نصر بن خزيمة وبعده معاوية بن إسحاق، اللذان استبسلا في نصرته عليه السلام.

واستنجد القائد الأموي العباس بن سعد بالرماة - كما أسلفنا- فجعلوا يمطرون على جيش الإمام زيد (ع) بوابل من السهام، ومع غروب شمس يوم الجمعة كان قد أصيب جسد الإمام عليه السلام بـ ١٣ سهماً، لكن سهماً منها أصاب جبينه الطاهر، رماه به داوود بن كيسان، فنزل الإمام عليه السلام من فوق فرسه، ووضع يده على جبهته وقال: الشهادة ... الشهادة؛ الحمد لله الذي رزقنيها!

هرع أصحاب الإمام زيد (ع) إلى مكان الصوت، فإذا بهم ينصدمون بمشهد الإمام (ع) مُضَرَّجاً بدمه، قد أصيب بسهم في جبهته.

عند ذلك تراجع أصحاب الإمام (ع)، فظن الأمويون أنهم تراجعوا لدخول الليل وحلول الظلام، والتف الأصحاب حول إمامهم، وجيء بطبيب؛ عَلَّه يتمكن من تطبيب الإمام عليه السلام، ولكنه وجد السهم قاتلاً، فالضربة قد بلغت إلى الدماغ، فلم يكن أمام الطبيب إلا أن ينزع السهم، لتفيض معه روح الإمام زيد عليه السلام إلى بارئها، و يلحق بجده المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم وقد أمر بالمعروف ونهى عن المنكر، فصلوات الله وسلامه عليه مِن قتيل ما أكرمه على الله، وسلامٌ على أصحابه الصابرين من عصابة ما أحبها إلى الله، وأنصحها لدين الله، وأعرفها بفضل عترة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

الشهادة... الشهادة

«فزت ورب الكعبة»

«الشهادة الشهادة؛ الحمد لله الذي رزقنيها»

كلمات خالدة تنبي عن عظمة أصحابها، وعظمة مبادئهم وغاياتهم، الأولى كانت كلمات الإمام علي كرم الله وجهه قبيل استشهاده، والثانية كلمات حفيده الثائر العظيم زيد عليه السلام عند استشهاده أيضاً، وكأنهما خرجتا من مشكاة واحدة، وجرتا على لسان واحد، وانبعثتا كنور يضيء للعالمين آفاقاً واسعة من العظمة والسمو؛ ليلامس كلَّ قلب مرهق، ويحيي كل ضمير ميت.

كلمات قد يظنها السامع من حروف المعجم وأبجديات اللغة، وهي في الحقيقة من نور الهدى، ونبع الاهتداء، كيف لا؟! وهي كلمات تحمل في طياتها الغاية السامية والعظيمة للإنسان كمكلف مختار في هذا الوجود، وتعبر بلسان الطاهرين عن الطموح المتجذر في نفوس السالكين، وما كان يجب أن يتجذر في وعي العالمين.

فالموت الذي تخاف منه البشرية، تستطيع أن تجعله فرصة للنجاة، ونافذة للفوز، ومنطلقاً للفلاح، ومبعثاً للشكر والحمد، إنْ أحسنَتْ في حياتها، واستثمرت أيامها، وصنعت من دقائقها مسيرةً للعطاء والصلاح والبر والتقوى.

الشهادة الشهادة .. الحمدلله الذي رزقنيها

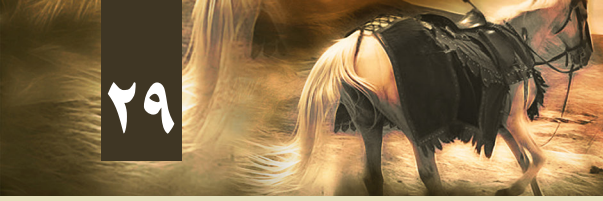

الحـوار الأخـير
(بين الإمام زيد وولده يحيى)

دخل يحيى بن زيد على أبيه وهو يبكي والدماء تسيل منه، والسهم نابت في جبينه، فجمع يحيى قميصه في يده ومسح به الدم من وجه أبيه، ثم قال له: أبشر يا بن رسول الله، ترد على رسول الله وعلي وفاطمة وخديجة والحسن والحسين وهم عنك راضون.

فقال الإمام: صدقت يا بني، فأي شيء تريد أن تصنع؟

قال يحيى بعزيمةِ مَن لا تثنيه المهمات الجسام ولا النوازل العظام: أجاهدهم إلا أن لا أجد الناصر.

فقال الإمام: نعم يا بني، جاهدهم، فوالله إنك لعلى الحق، وإنهم لعلى الباطل، وإن قتلاك في الجنة، وقتلاهم في النار.

بعبقِ طهارةِ هذه الكلمات يختمُ الإمامُ الأعظمُ حياتَه الساميةَ التي أرعبت فرائِسَ المُجرمين وقضَّت مضاجعهُم. وهو يوصي ولده يحيى بميراثه الذي لم يكن من الذهب والفضة ولا العقار والأموال، ولكنه ميراث إحياء شرع الله. والتصدي للظالمين، والتضحية في سبيل إصلاح أمة جده رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

وهنا يسجل التأريخ وتكتب الأقلام أعظم وأسمى صور الكمال والعظمة في حوار بين والد يورث ولده ميراث الأنبياء والمصلحين وولد يشرح صدر والده الجريح حين أراه من نفسه إماماً يحمل نهجه ويسير على دربه، مع معرفتهما عليهما السلام بما يحفُّ هذا النهج من المخاطرِ والمصائب والآلام، وأن ثمن ذلك بذل الأنفس والأرواح.

«أنْ جاهد يا ولدي» تحملُ ما يجلُّ منَ الأبعادِ والدلالاتِ المُنبثقةِ من بيئةِ القرآنِ الواعيةِ في استراتيجيةِ المُتاجرةِ مع الله بتقديم القرابين، كانت تلكَ حروفَ زيدٍ المُفعمةَ بلحنِ الأُبوةِ التي تخيرت لولدها أسمى معارج الكرامة، دافعاً إليهِ الميراثَ الإلهي الأقدسَ «جهادٌ في سبيلِ اللهِ حتى عُروجِ الروح».

فيقابلها يحيى بن زيد بثقافةِ اقتفائيةٍ إنْ قيل بأنها قُدسيةٌ فهذا قليلٌ بحجم ما حَملتْ من التربيةِ النبويةِ، فيكب على جسدِ أبيهِ ماسحاً لوجههِ المُخضبِ بالدماءِ بيديه الطاهرتين ويقول له: (أنْ أبشرْ يا بنَ رسولِ اللهِ تَردُ على رسولِ اللهِ وعليٍّ وفاطمةَ وخديجةَ والحسنِ والحُسينِ وهم راضونَ عنك)؛ ذخيرةٌ حيةٌ تلكَ التي استقاها هذا الولدُ الراسخ في الإيمان.

هذا هو فارسُ زيدٍ، واضح الانطلاقةِ، معلوم الاستقامةِ، شاهر السيفِ، رافع الرُمح، من تبع خُطى أبيه في نُصرةِ المُستضعفينَ ومُحاربةِ المُجرمين، مُستكملاً للثورةِ الجهاديةِ، حاملاً لواءَ الحق، مجسداً عدل جده مُحمد وثبات علي واستبسالَ الحُسينِ صلوات الله عليهم أجمعين، وهو يردد في كل ذلك:

يا بن زيد أليس قد قال زيد

من أحب الحياة عاش ذليلاً

كن كزيد فأنت مهجة زيد

تتخذ في الجنان ظلا ظليلاً

كانَ يَحيى عليه السلام بحقٍّ ثائراً محمدياً هدَّدَ أمن الطغاة، وسلبهم راحتهُم التي انتزعوها من عوام الأمةِ. فأوفى بوصية أبيه، وصدق فيه ظنه، وقرت به عينه.

سهم الجبين

غادرٌ ذلك السهمُ الغائرُ في جبين حليفِ القرآنِ، الغارزُ بحقده في جمجمتهِ الطاهرة، مُتوغلاً حتى أيسُرِ دماغهِ الشريف، بعد أيام حافلة بعظيم استبسالٍ وعميقِ تجلٍّ للإمام زيدٍ (ع) ومن معهُ منَ الأوفياء، في سلسلةِ معارك لم تتوقف مع الجيش الأموي.

قاتل الإمام (ع) وأصحابه قتال الأبطال، فأدرك قائد الجيش الأموي أنه لا جدوى من مواصلة الالتحام مع أصحاب الإمام (ع)، وأن السهام تبقى - كما كان الحالُ في كربلاء- رهانَ الجيوش الطاغيةِ المُجرمة بعدَ انكسارها، رغمَ كثرتها وقلَّةِ أصحاب الحق.

وابلٌ من السهام تمطرُ على الامام زيدٍ (ع) وأصحابه، ومن بين أكثر من ثلاثة عشر سهماً نالت جسد الإمام الطاهر استقَرَّ سهمٌ في جبين عليه السلام، وَلَيتَهُ لم يستقر، إنَّه سهمٌ تخيَّرَ لنفسهِ أشرفَ بُقعةٍ ليَحُطَّ عليها، ويجعلَ من جبين الإمام له محلاً. فيرتفع صوته عليه السلام من مُقدمةِ الجيش هاتفاً: ((الشهادة ..الشهادة ...الحمد لله الذي رزقنيها)).

عند ذلك يهرعُ أصحابُه عليه السلام إلى مكان الصوت. فإذا هم بقائدهم وإمامهم زيدٍ عليهِ السلام، وقد ترجَّلَ عن فرسه ووضع يده على جبينه، ظافراً بزمام الشهادةِ مُتشبثاً بها، وهو القائل عليه السلام: أذلّ الحياة وعزُّ الممات... و كلاً أراهُ طعاماً وبيلا

فإن كان لا بد من واحدٍ ...فسيرٌ الى الموتِ سيراً جميلا

سارع أصحابُ الإمام زيد (ع) وحملوه إلى دار حران بن أبي كريمة في سكة البريد في دور أرحب وشاكر؛ ليحضروا بعدها طبيباً يداويه وينظُرُ كيف يصنع بالسهم النابت في جبينه.

جاء الطبيبُ - وكان اسمه سفيان وكان مولى لبني فراس- والإمام ملقى في حجر محمد بن سلمة الخياط وبجواره ولده يحيى، فلما نظر إلى جرح الإمام (ع) علم أن الشهادة قد دنت منه، فأخبرهم أنه ليس بين الامام ومفارقة الحياة إلا نزع ذلك السهم، فقال له الإمام زيد (ع): «انزعهُ يا هذا فو الله إن الموت لأهونُ عليَّ مما أنا فيه «، ثم أشار إلى الطبيب - وهو يردد الشهادتين- أن ينزعه، ففاضت روحه الطاهرة سلامُ اللهِ وصلاتهُ عليه؛ لتعرُجَ إلى بارئِها بعد غروب يوم الجمعة، ٢٥ محرم من سنة ١٢٢هـ. وله من العمر (٤٦) سنة، فمضى عليه السلام شهيداً بعد سيرةٍ مليئةٍ بالجهادِ والاجتهادِ، ليظل ملهماً للعالمين، ويظل نهجه نهج الأحرار في كل زمان ومكان.

فصلاة الله وسلامه على الإمام الأعظم زيد بن علي يوم ولد، ويوم استشهد، ويوم يبعث حيا، سلامٌ يبلغ عنان السماء، سلامٌ لا ينتهي ولا يبلى.

جاهدهم يابني.. فوالله إنك لعلى الحق وإنهم لعلى الباطل، وإن قتلاك في الجنة وقتلاهم في النار

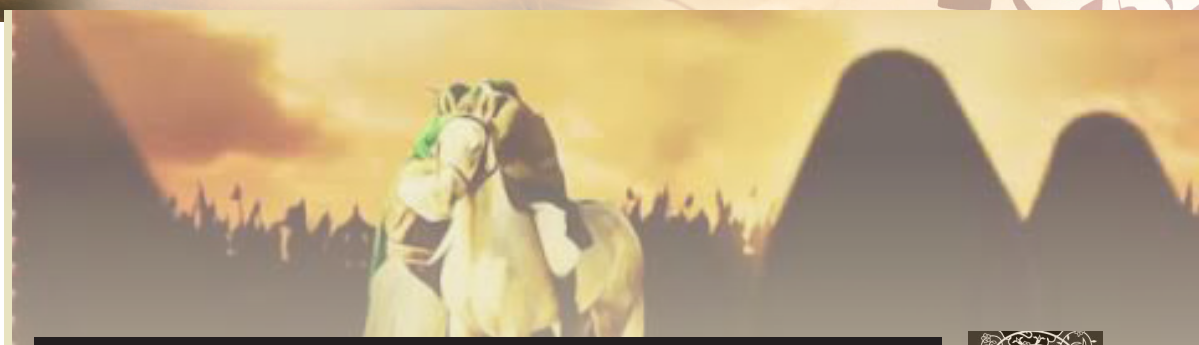

المرأة في نصرة الإمام زيد

بلا شك أن دور المرأة في نصرة الدين لا يقل أهمية عن دور الرجل، فهي من سجل لها التأريخ أعظم المواقف مع النبي صلى الله عليه وآله وسلم في بداية دعوة الإسلام، وشهد بحضورها في أشد الظروف، وأقسى اللحظات.

ومع الإمام زيد (ع) كان للمرأة مواقف مهمة خلدها الزمان، وحفظتها الأجيال، فحين انكفأ أهل الكوفة إلى طبعهم القديم، وخذلوا الامام زيد (ع)، حاولت نساء الكوفة أن يحفظن لتلك المدينة شيئ من كرامتها، وينفين عن وجهها بعض من العار الذي لطخها به رجالها، فقد جاء في كتاب أنساب الأشراف للبلاذري[ج١/ ص٤٣٤] ما لفظه: «وعرض نساء الكوفة على زيد أن يخرجن فيقاتلن معه، فقال لهن زيد: ﴿وقرن في بيوتكن﴾ [الأحزاب:٣٣]، فوالله ما ترجى رجالكم، فكيف النساء؟ ليس على النساء ولا على المرضى قتال.»

ويكفي هنا أن نذكر دور تلك المرأة الخرسانية التي كانت من أشد الناس حبـ لآل محمد، وذلك أنها سألت زوجها أن يخرجها إلى مكة، فدعت الله دعاء، وتعلقت بأستار الكعبة، تسأل الله تعالى أن يهب لها ولد تقر به عينها، قال الراوي: فوالله ما رجعت حتى علقت، فمكثت حتى وضعت، فتلد غلامـ ، فلم تزل تربي وتدلل ذلك الغلام وتلقنه حتى كبر، ونشأ أحسن نشوء، فلما خرج زيد بن علي عليهما السلام، جهزته بأحسن ما تَجَهَزَ به أحد من عدة الحرب، واشترت له فرسـ ، فحملته عليه، ثم دعت له، ووجهته إلى زيد بن علي عليه السلام ليقاتل بين يديه ويستشهد.

وقد حفظ لنا التأريخ نماذج مما نال بعض النسوة من العذاب والبطش نتيجة مواقفهن من ثورة الإمام زيد (ع)؛ واليكم بعض من هذه النماذج:

¤ أرسل يوسف بن عمر إلى امرأة الإمام زيد بن علي، وهي من الأزد، فأتي بها، فلما دخلت عليه، قال لها: يا عدوة الله، تزوجت زيد بن علي؟ فقالت: نعم، والله تزوجت بزيد بن علي، ولو خطب إليك لزوجته ابنتك، فغضب يوسف بن عمر وقال: خرقوا عليها الثياب، وعلي بالسياط!! قالت: ويلك يا عدو الله، إني امرأة فكيف تخرق علي ثيابي. فقال: دعوا كلامها، فشقوا ثيابها وأخذتها السياط من كل ناحية. فقالت: ويلك، إني إحدى خالاتك، إني امرأة من الأزد، وأمك امرأة من الأزد. فقال يوسف بن عمر: لعن الله من أنت خالته. فقالت: نعم، ولعن الله من هي أقل نسب منكم أمك. فقال يوسف بن عمر لجلاديه: اقتلوها. فجعل القوم يضربونها أشد ضرب يكون، وهي تقول: ويلك، ما أنت حر، ما أنت من العرب، والقتل بالسيف يا بن عبد آل ثمود.

فلم تزل كذلك حتى ماتت ـ رحمة الله ورضوانه عليهاـ ثم أمر بها، فألقيت على قارعة الطريق، فجاء إليها قوم من بني عمها، في جوف الليل فحملت ودفنت.[أنساب الأشراف، ج١/ ص٤٣٦]

¤ طلبَتْ امرأة كانت قد أشارت على أمها أن تؤوي بنتـ لزيد بن علي، فلما مَثَلَتْ أَمَرَ والي هشام بضربها خمسمائة سوط.[أنساب الأشراف، ج١/ ص٤٣٦]

¤ ألقى يوسف بن عمر القبض على امرأة كانت قد أعانت الإمام زيد على أمره، فلما مثلت بين يديه أمر أن تقطع يدها ورجلها، فقالت: اقطعوا رجلي أولاً حتى أجمع علي ثيابي!! فقطعت يدها ورجلها ولم تحسم، وظل الدم ينزف حتى ماتت، ثم طلب زوجها وضربت عنقه. [أنساب الأشراف، ج١/ ص٤٣٦]

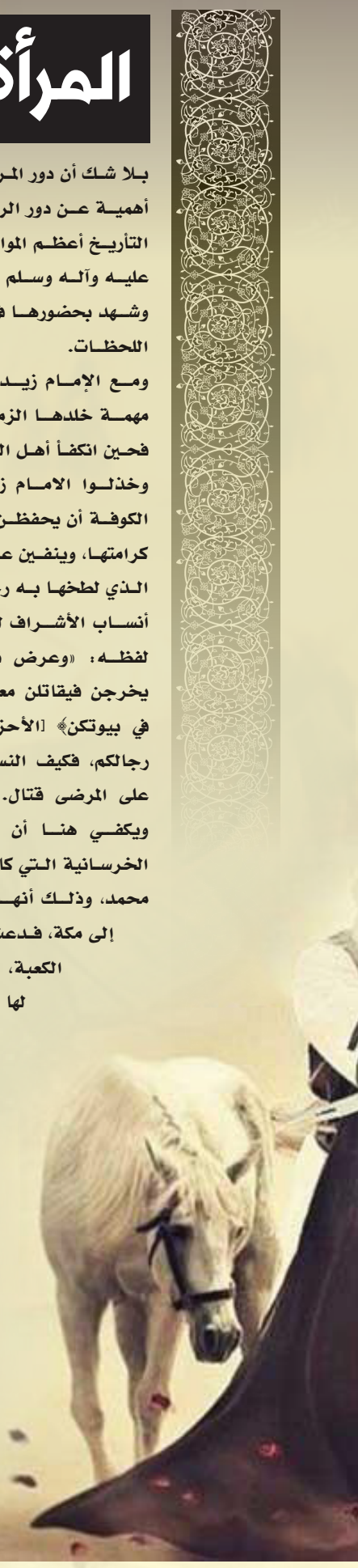

ضعاف النفوس

دائماً ما يُدوِّنُ التأريخُ في سجلِ أحداثهِ تغير النفسياتِ، وتذبذب مواقفها بين مد وجزر، ولا عجب في ذلك، فإنه إذا لم يكن الإيمانُ فيها راسخاً، والعقيدةُ ثابتةً، فسيداخلُ هذه النفسياتِ الضعفُ والوهن.

وما أكثر تلكَ النفوس التي خنعت تحت وطأةِ الماديات، وسقطت في ميدان الامتحان حباً في المال أو غيره، حتى وإن كان في ذلك تنكُّرٌ لعظيمِ معروفٍ قُدِّمَ إليها، وتبرم لجميلِ إحسانٍ نالها.

الإمامُ زيدٌ (ع) كان قد احتوى في داره غُلاماً سندياً؛ ليُعينهُ في أُموره وأشغالِه، رائحاً غادياً معهُ أينما حلَّ ورحل، كائناً بين يديه يرى بهاءً وجلالاً ممزوجاً بأعلى مستوى من الأخلاق والمكارم، ولكنَّ النفسَ إذا ما صَدَّتِ النورَ الوافدَ إلى جوفها تدنست حتى عُقلت بحبائلِ الظلام التي لا يجدُ القَبسُ إلى فكها سبيلا، فهذا الغلامُ السنديُ قَد غلبه حبُّ الدنيا بعد استشهاد الإمام زيد (ع)، فسارع إلى بيع العزَّةَ التي كان فيها مقابلَ جائزةٍ دنيويةٍ ما كان لها أن تقيه شيئاً من حميمِ جهنم.

لم تمضِ سوى ساعات قليلة على دفنِ الإمام زيدٍ عليه السلام تحت مجرى النهرِ- حرصاً من أصحابهِ لإخفاءِ جُثتهِ الطاهرة- حتى نادى منادٍ ليوسف بن عمر: من دلَّ على قبر زيد فله جائزة من المال كذا وكذا، فسالَ عندها لُعابُ ذلك الغلام السندي وتهاوى إيمانُه - إن كان له إيمان- أمامَ حفنةٍ من المال، ليقفَ صاغراً بين يدي قائد جيش هشام يوسف بن عمر في مجلسِهِ المُدنَّس خاضعاً لَهُ، ليقول له: «أن مُبتغاكَ عندي ..لكَ جسُد زيدٍ تنقمُ منهُ ما شئتَ ولي الجائزة».

تحركَ جيشُ هشام من ساعتهِ لاستخراج جُثة الإمام زيد (ع) في حين أنَّ السنديَ ظلَّ مُترقباً لجائزتهِ التي لن يأتيه بَعد ذلكَ منها إلا جُزءٌ مُجَزَّأٌ.

خيانة وديدنٌ خبيثٌ لم يُنقِّص من قدر الإمام زيدٍ (ع) شيئاً، ولا حتى زادَ المجرمينَ شيئاً، إلا أنهُ هوى بصاحبه في الدنيا حتى تتلقفَهُ نارُ جهنَّمَ يومَ لا يُغني مالٌ ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم.

وما هذا الحالُ ببعيدٍ عن كل خائنٍ ومُرتزقٍ تُسوِّلُ لهُ نفسهُ بيعَ آخرته بثمنٍ بخسٍ من حُطام الدنيا الفانية، في سبيل حُكام طغاةٍ لا يُولُون ذرةَ اكتراث لدينهم ولا لأخلاقهم، ولعلَّ أكبرَ شاهدٍ على ذلك ما يحدث لمرتزقة قوى الاحتلال في أرض اليمن، وكيف يرمون بأنفسهم في محارق الموت كأحذية منتهية الصلاحية؛ لينالوا بذلك بضعةَ ريالات، ولكن لا بُدَّ أن ينتهي المطافُ بضعافِ النفوس إلى منعطفاتِ الدنيا التي تُلقي بهم إلى قعرِ جهنَّم ليلاقوا من لهبها وأهوالها ما شاء الله إلى أبد الآبدين.

ما سرني بجرعة غيظ أتجرعها.. وأصبر عليها حمر النعم

أهكذا تفعلون بولدي؟!

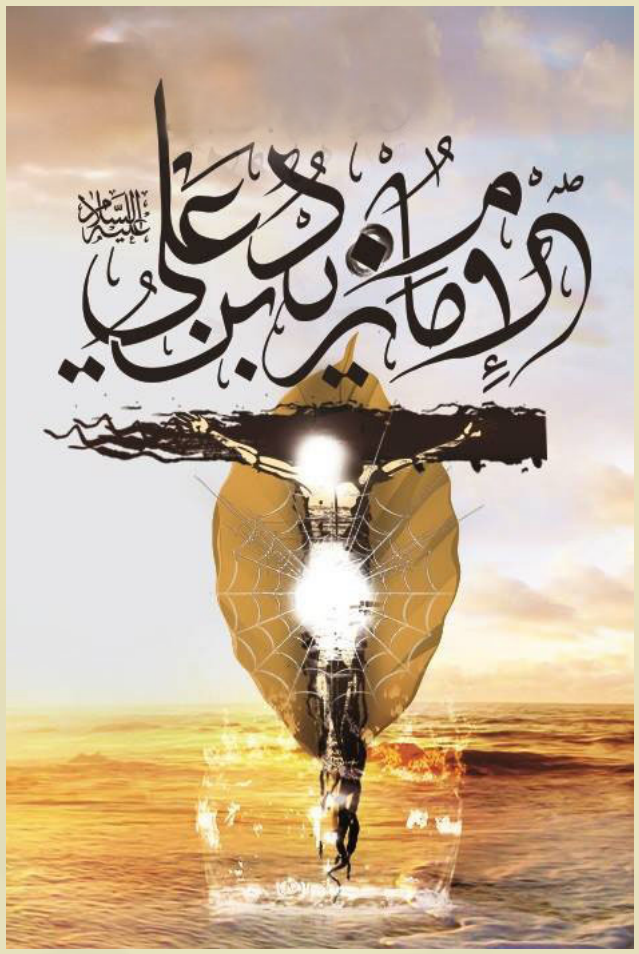

استُخرجَ جسد الإمام زيد (ع) الطاهر من تحت الثرى ليُساقَ على جملٍ فيُلقى بهِ على بابِ القصر، فأمر يوسفُ بن عمر أزلامهُ المُستأجرينَ بقطع رأس الإمام الشريفِ، ويُسيَّر بعدها إلى الطاغيةِ هشام، فيأمر بأن يجال به في أنحاء الكوفةِ في مشهدٍ كربلائي مُتكرر.

وفي حيوانيةٍ إجراميةٍ يأمرُ هشام بجسد الإمام (ع)، فيُصلب بسُوقِ الكُناسة مع الأصحابِ الخُلَّص الأوفياء، كمعاوية بن إسحاق، ونصر بن خزيمة، وزياد الهندي، ولا يكتفي بذلك فيكلفُ مجموعة مؤلفة من ٤٠٠ جندي بحراسة الجسد الطاهر المصلوب؛ لكي لا يُنزلهُ أحدٌ من خشبته ويدفنه، قاصدين بذلك الإساءةَ له، ومحاولين تنقيصَ قدره في قلوبِ الناس، وتخويفهم من القيام بأي تمرد على حكمهم الأموي الطاغي؛ لأن من يثور عليهم ستكون عاقبته القتل والصلب، ولكن تأتي الكراماتُ والألطاف الإلهية لتحفَّ ريحانةَ زين العابدين وحفيدَ السبطِ عليه السلام، فتبدد كل تلك المساعي، وترسخ حب أهل البيت عليهم السلام ومنهجهم الحق في قلوب الناس.

هي لحظةُ جهلٍ مقيتٍ تلكَ التي غفلَ عنها هشامُ ومن معه في حضرةِ الطُهرِ من بيت النبوة، فقد انقلبَ المكر الذي مكروه في غياهبِ أذهانهم السَكِرَة المُتحجرة عليهم، وانهدت أوهامهم على خشبة الإمام زيد (ع)، وما حملت من كرامات، وليس حُضورُ أهلِ الكوفة كلَّ ليلةٍ للعبادةِ بجوار تلك الخشبةِ إلا خير شاهد ودليلٍ على ذلك.

ما كاد الإمامُ زيد (ع) يستقر على الخشبة حتى بدأت كراماته تتجلى أمام أعين الناس، ومن ذلك أن أولئك المجرمين لما صلبوه عليه السلام جعلوا وجهته الى جهة الفرات، فدارت به الخشبة التي كان عليها إلى ناحية القبلة، حتى فعلوا ذلك مراراً وهي في ديدنها تعودُ إلى جهةِ القبلة.

ومن كراماتِهِ عليه السلام أنَّ رجلاً قَدِم إلى الكوفةِ، فقال مخاطباً لأهلها: ألا ترون هذا الفاسق ابن الفاسق كيف قتلهُ الله؟!

فما لبثَ أن رماه الله بقُرحتين في عينيه، فطمس الله بهما بصرهُ، حتى قال: احذروا أن تتعرضوا لأهل هذا البيت إلا بخير.

وقال شبيبُ بن غرقد: قدمنا إلى الكوفةِ من الحج، فدخلنا الكناسةَ ليلاً، فلما كنا بالقربِ من خشبةِ زيد أضاء الليل فلم نزل نسيرُ نحوها، فنفحت منها رائحةُ المسك.

ومن تلك الكرامات أنَّ رجلاً مرَّ على خشبتهِ فوضعَ إصبعهُ عليها وقال: هذا جزاءُ الفاسق ابن الفاسق فغاصت إصبعهُ في كفه.

وهذا جرير بن حازم يحدث أنه رأى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في المنام، وهو متساند إلى جذع زيد بن علي وهو مصلوب، وهو يقول للناس: « أهكذا تفعلون بولدي!».

وهذا سماعة بن موسى الطحان يقول: رأيت زيد بن علي مصلوباً بالكناسة فما رأى أحد له عورة، استرسل جلد من بطنه، من قدامه ومن خلفه حتى ستر عورته.

وهكذا ظل الإمام زيد (ع) مصلوباً في كناسة الكوفة، والكرامات تتتابع عليه، والله يرسل لهذه الأمة آياته، ويبين لها تأييده لأوليائه.

كثُرت تلك الآياتُ والتأييدات الإلهية، فلم يكن من أعداء الإنسانية إلا أن قاموا بإنزال الإمام زيد (ع) وإحراق جسدهِ الطاهر، وذرِّ رماده في الفرات، ولكن الحقَّ لم يطفأ، والكرامات لم تنتهِ، فقد استدارَ ذلك الرماد الطاهر بين الماء حتى كان كهُلةِ القمرِ وضاء، واجتمعَ كهيئةِ الهلالِ في محضرٍ كريم جليل معدوم النظير.

﴿يريدون أن يُطفئوا نورَ الله بأفواههم ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون﴾ [التوبة:٣٢].

والله لو علمت أن رضاء الله عزوجل في أن أقدح ناراً بيدي حتى إذا اضطرمت رميت بنفسي فيها لفعلت

داعش الأولى

إذا ما رأيتَ حاكمَ الأُمَّةِ المنصوبَ فوق رقابها هو نفسهُ ذلكَ السكِّيرُ الخمِّيرُ المتنقِّل في أروقةِ قصره، المولع بالجواري، حاضناً للقردةِ، مُدللاً لها، فاتحاً بابهُ للماجنين والسكارى، واصداً له في وجوه الرعيةِ المؤمنين المُستضعفين، متجبراً في الأرض، عائثاً فيها الفساد، فأنتَ بلا شك في حضرةِ داعش الأم.

بنو أمية سِلكٌ إراهبيٌّ عظيم الاحتيال، كثيفُ الدمويةِ تبنَّى مشروعَهُ الأولَ معاويةُ بن أبي سفيانَ قتلاً و تشريداً للمسلمين عامةً ولأهل البيت عليهم السلام خاصة، واستباحةً لأعراضهم في ظاهرةٍ هي السابقة من نوعها في الإسلام.

أعلامُ آل محمدٍ سفنُ النَّجاة و مصابيحُ الظلمات تصدَّروا قوائمَ أهدافِ الطُغاةِ والمجرمين الذين أوصلهم اعوجاجهم عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم وعترته الطاهرين إلى منتهى البغي وغايةِ الاضطهادِ للمسلمين، ابتداءً بإجرام معاوية بن أبي سفيان الذي كانت أمُّهُ هندُ قد سبقتهُ قبلَ ذلك في إجرامه بالتعدي على جسدِ سيد الشهداء حمزة بن عبدالمطلب، واستئصالِ كبدهِ الشريف، ثم جاء بعده ابنه يزيدُ المُنتهكُ لحُرم الله في الارض، ثم بعد ذلك هشام وأمثال هشام، وبين هؤلاء أنواع من الجبابرة المستكبرين، حتى نصلَ إلى وقتنا الحاضر لنشاهد نُسخةً عصريةً متميزةً، قد فاقت نظيراتها في الإرهاب والإجرام.

الطاغيةُ هشامُ بن عبدالملكِ أحدُ النَّماذج المُجرمةِ التي جسَّدتِ القتلَ والسحلَ والطوافَ بالرؤوسِ المُحتزةِ في شوارع وطرقات المُدن والبلدان المختلفةِ؛ ليُسَجلَ التأريخُ منابعَ الإرهابِ الحقيقيةَ، وجذورَهُ الممتدة إلى عصرنا هذا.

قبائحُ شنيعةٌ مارسها الأمويونَ من بدايةِ استحواذهم على الحُكم، فأبشعُ أساليبِ الإجرامِ تُرتكبُ في حقِّ المسلمين، وبالأخصِّ الذُّرِّيةَ النبوية العلوية، لم يكن ذلك مجرَّدَ حقدٍ جافٍّ، بل كان السعي منهم حثيثاً لمحوِ الدِّينِ المُحمديِّ باجتثاث معالمه، واستئصالِ أعلامهِ الذين تحمَّلوا مسؤوليةَ الدِّفاع عنه أمام ثقافةِ الاستبداد وانتهاكِ الحُرمات.

الجُثمانُ الطاهرُ لحليف القرآن أو اسطوانة المسجدِ كما يرغبُ أن يُسميهِ أبناءُ عصره، حالهُ كحال غيره من مضطهدي المسلمين بل وأنكأ، فها هو لم يَسلَم من قبائحِ الأمويين وتجاوزاتهم حتى بعد استشهاده عليه السلام، فيُنبش قبرهُ الطاهرُ في سابقةٍ إجرامية اكتسحتِ الجراءةَ واللاحياءَ؛ لتُصبحَ اليومَ ظاهرةً تُمَارَسُ نهاراً جهاراً في بلدنا العزيز على أيدي غُلاةِ الوهابية وخُدام الصهيونية من داعش بمسمياتها المختلفةِ المستبيحةِ لكل مُحَرَّم، ولم تكن إجرامية النبشِ هذه إلا مُقدمةً لسلسلةِ انتهاكاتٍ مُشينةٍ تَقَلَّدَها هشام ومن معه، لتسمعَ بعدها خبرَ صلبِ الجسدِ الشريف بكناسةَ الكوفة، وقد عمَدوا إلى نزعَ كل ما يواريه، وفي انحطاطٍ أخلاقيٍّ مُعشعش في قلوبهم، ودونيةٍ رهيبةٍ ملكت أرواحَهم يَحوطون هذا الجسدَ المصلوبَ بلا رأسٍ بأربعمائة جندي، يتناوب كلَّ ليلة مائةٌ منهم حتى لا يلقى محبُّو الإمام وشيعته سبيلاً إلى إنزاله ودفنه عليه السلام، ومع تزايدِ الكرامات التي حفَّت جسده الطاهر يزدادُ المُجرمون غيظاً وحقداً عليه، فهو الذي قضَّ مضاجعهم حياً وميتاً.

بعد ذلك يأتي الخبرُ بموت الطاغية هشام بن عبدالملك، ويعلنُ عن تولي الوليدِ سطوةَ الحُكم الجائرِ بعده، ليَكتُبَ الأمرَ إلى والي الكوفة آنذاك بإنزال جسد الإمام زيد (ع) وإحراقه و ذرِّ رمادهِ في الفرات - بعدَ صلبٍ دام أربع سنوات- حتى لا يكون له قبر في الأرض يزار. ولا مشهد يقصد؛ لمحو ذكرهِ من أفواهِ الثائرين، ونزع محبته من قلوبهم، كمحاولةٍ لفصلِ روحهِ الثوريةِ الجهادية عن جسدِ أُمَّةٍ أحوج ما تكونُ إلى أمثاله، وليست أكثر من محاولةٍ فاشلة ممن أعيتهم وأزعجتهم ثوراتُ أئمة أهل البيت (ع) التي يولدُ فيها بعد كلِّ زيدٍ ألفُ زيد.

الاعتصام بالكتاب نجاة من الفتن والأهواء المضلات، وذهاب العالم ذي الديانة صَدْعٌ في الدين لايرتق.

أهل الوفاء

للوفاء صورٌ مضيئة، ونماذج متألقة؛ وأهل الوفاء في كل زمان هم حماة الدين ورجال الإنسانية ومشاعل التضحية. لا يخافون من إظهار مواقفهم، ولا يترددون في حماية مبادئهم. وثورةٌ كثورة الإمام زيد (ع) لن تجد أنصارها ورجالها إلا من أطهر العباد وأزكى البشر.

لقد كانت ثورة الإمام الشهيد زيد بن علي عليهما السلام مشهداً من أجلى مشاهد العظمة، وصورة من أعظم صور التضحية، ووقعة من أجل وقعات البطولة؛ وفيها وقف مع الإمام زيد عليه السلام رجال أعادوا للإيمان قيمته في سجل المراتب، وبعثوا الوفاء من جديد، بعد أن دُفن بين الأصلاب والترائب.

لقد حمل أنصار الإمام زيد بين جوانهم أرواحاً تشبَّعت بحُبِّ الله وهامت في حبِّ رسوله ومحبة آهلِ بيته صلوات الله عليه وعليهم أجمعين، فسطرت أروع الملاحم البطولية في التضحية والفداء؛ ليصبحوا فيما بعدُ رموزاً خلَّدَها التأريخُ، وأمثلةً ماثلة لكلِّ حُرٍّ لا تسمح له نفسه بالاستكانة والخضوع، أرواحٌ نفضَت عن الأمة الإسلامية العارَ الذي تلطَّخت به عند تخلُّفها المشؤوم عن مبدأ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

يقول عنهم إمامهم زيد بن علي عليه السلام: ((وأنا أعلم والله إنه ما أمسى على وجه الأرض عصابة أنصح لله ولرسوله وللإسلام منكم)). ويصفهم سليمان الرازي: ((لم أرَ يوماً كان أبهى ولا أكثر جموعاً ولا أوفر سلاحاً ولا أشد رجالاً ولا أكثر قرآناً وفقهاً من أصحاب زيد بن علي)). وهنا نقف على نماذجَ مشرقةٍ من هذه التضحيات، ونقرأ في ثنايا سيرة بعض من عظمائهم دروس التضحية والفداء:

معاوية بن إسحاق الأنصاري

معاويةُ بن إسحاق بن زيد بن حارثةَ الأنصاري نموذجُ وفاءٍ وفداء، لم يرضَ بحياته أن تضيع في مغريات فانية، دون أن يعززها بمواقف خلدها في صفحات التأريخ، فها هو يضع لمسته الأخيرة في هذه الحياة في مُجابهة الظالمينَ تحتَ لواءِ الحقِّ، مُتفانياً مع أهلِ البيت(ع) في النُصرةِ والتلبية دونَ مبالاةٍ لعِظَيم صَلَفِ المتجبرين، وشديدِ بغيهم، جازماً ألا خيرَ في عيشةٍ تحت عباءة الظالمين.

انطلقَ معاويةُ بنُ إسحاقَ مع الإمام زيدٍ عليه السلام خلالَ تحركِهِ الثوريِّ، فكان له خيرَ ناصرٍ ومعين، وقد كان الإمامُ (ع) متخفياً في دارهِ أيامَ التحضير للثورة، وكان رضي الله عنه من دعاة الإمام إلى الآفاق يأتي العلماء يدخلُ على النَّاس ويطوفُ البلدان داعياً إلى نصرة الإمام. بأحسنَ بيان.

لقد لازمَ معاوية بن إسحاق الإمام زيد عليه السلام في كل منعطفات الثورة، وشاركه في جميع أيامه. وكان معه خير ناصر وأجل صاحب. وحين بدأت المواجهةُ. قاتل أشدَّ قتال، وظلَّ مدافعاً عن مبادئه مجاهداً عن إمامه حتى نال رضوانُ الله عليه شرفَ الشهادة بعدَ صولاتٍ وجولاتٍ واستبسالٍ فذٍّ خاضهُ ضدَّ جيشِ هشامٍ، حتى عجزوا أن يبرزوا لهُ إلا اغتيالاً وبغتة؛ وما تلكَ إلا تجارةٌ فُتحت أبوابُها. فكان من السابقينَ لها في تفانٍ صادقٍ لنُصرةِ الدين، ولم يكتف الظالمون في قتل معاوية بن إسحاق بل عمدوا إلى جسدِه الطاهر ونصبُوهُ مصْلوباً معَ إمامِه زيد. وكأنَّ الأحداثَ أرادَتْ أنْ تقولَ بلسانِ ابن إسحاق: والله ما تركتك يا أبا الحسين حياً ولا مصلوباً بكناسة كوفان.

وهكذا هو حالُ أهلِ بيتِه الذين سِيقوا بعد ذلكَ الى قصر الإمارة؛ ليُحاكَموا على جُرمِهم في نُصرةِ الإمام زيدِ(ع)، وهم ليسوا أكثرَ من نساءٍ وأطفال، ولكنَّ ثباتَهم يصعقُ قائدَ الجيشِ الأموي ويجعلُه يشتاطُ غضباً ويزدادُ حقداً، فيأمرُ بزوجةِ ابن إسحاق لقطعِ يديها، الواحدة تلو الأخرى، لتلاقي ربَّها بعد ساعاتٍ من مُكابدة الألم، مُعاناةٌ لا توصفُ، لكنَّ التضحية بالنفس والمالَ عند النفوسِ المؤمنةِ أهونُ عليها من خذلانِ رسولِ اللهِ صلى الله عليه وآله وسلم في ابنه وسليله في مثل هكذا مواقف.

وفي معاوية بن إسحاق ورفيقه في البطولة نصر بن خزيمة يقول الشاعر:

ترى الخيل تبكي أن ترى الخيل لا ترى
معاوية الهندي فيها ولا نصرا.

نصر بن خزيمة العنسي

نصر بنُ خُزيمةَ العنسي من أوائلِ الأوفياءِ وأشدِّهم صدقاً، وأمضاهم عزيمة مع الإمام زيد عليه السلام، وإن كان الوفاء رجلاً لكان نصرَ بن خزيمةَ. جبل من المعاني الكريمة. وكتاب من الصفحات النبيلة. سجلَّ تأريخاً حافلاً بمعارضة الظالمين منذ شبابه. يأبى الظلم ويكره الفسادَ ولا يخافُ في سبيلِ الحق صولةَ جبارٍ ولا سيفَ طاغية. ففي تاريخ دمشق لابن عساكر. قال: «عن سليمان بن زياد عن أخيه يحيى بن زياد قال: كان يوسف وفد أبي إلى هشام بن عبدالملك. فقدم علينا أبي من الشام ليلاً، فقال لنا: هل عندكم خبر؟ قلنا: لا. قال: على ذلك. فقلنا: لا؛ إلا أن زيداً مختفي بالكوفة، يقولون إنه يريد الخروج. قال: فمن صاحبُ أمره؟ قال: نصر بن خزيمة العبسي. قال: قاتل الله العباس بن الوليد. قلنا: وكيف ذكرت العباس بن الوليد؟ قال: أتيته مودعاً فقال لي: يا أبا يحيى اتقوا رجلاً من أخوالي بني عبس بالكوفة يقال له نصر بن خزيمة العبسي لا يجني عليكم حرباً.»

وكان نصر يرجو في الإمام زيد عليه السلام الخروج ضد هشام، والثورة عليه، ويدعوه (وهو بمكة) للقدوم نحو الكوفة؛ ويحثه على التصميم

انصروني على أهل الشام، فوالله لا ينصرني عليهم رجل إلا أخذت بيده حتى أدخله الجنة

على الثورة، يعيش أيامه منتظراً لداعي الحق، وما إن قدمَ الإمامُ زيد عليه السلام الكوفة حتى أنزله في داره، فكان نصر بن خزيمة سبَّاقاً في نُصرته، مقاتلاً بين يديه، لم يُزعزعهُ خذلانُ الخاذلين، ولا تَخلُّف المبايعين؛ فإنه رضوان الله عليه لما رأى تخاذل من بايع الإمام زيداً عليه السلام عن نصرته، وبقاءهم في جامع الكوفة، قامَ فيهم من خلفِ المسجدِ هاتفاً يستحثُّهم على الجهادِ، ويقول: «أن يا أهل الكوفةِ اخرجوا من الذلِ الى العزِ وإلى نعيم الدنيا والآخرة»؛ ولكن كان كلامه لهم دونَ جَدوى؛ فالنفوسُ النائمةُ عن الحق نادراً ما تستيقظ.

نظر الإمامُ زيدُ بن علي عليهما السلام إلى نصر بن خزيمة الذي كان يحبه حباً شديداً، فقال له: ((يا نصر بن خزيمة، أخاف أهل الكوفة أن يكونوا قد فعلوها حسينية))، فنظر نصر بن خزيمة إلى إمامه وقال: (جعلني الله فداك، أما أنا فوالله لأضربن بسيفي حتى أموت)، بعد ذلك انطلق نصر في ثنايا معركةٍ مفتوحةٍ مع جيشِ يوسف بن عمر، مُخترقاً لصفوفهم جنباً إلى جنبٍ مع الإمامِ زيد(ع)؛ مبلياً في سبيل ذلك أحسنَ البلاء.

ومن مواقف نصر بن خزيمة المشرفة أنه لما رأى المبايعين للإمام زيد (ع) في صبيحة اليوم الأول للمعركة قد تخلفوا، ذهب إلى قوم من قيس فحثهم على الجهاد وعاب عليهم التخاذل، فاستجابوا لدعوته وعادوا معه إلى إمامهم وقاتلوا بين يديه.

كما كان له رضوان الله عليه في أيام المعركة مواقف عظيمة، فقد قتل في اليوم الأول للمعركة أحد أبرز قادة العدو، وهو عمر بن عبدالرحمن صاحب شرطة الحكم بن الصلت، وقد حمل في يومها حملات على جيش يوسف بن عمر وهزمهم هزيمة قال عنها التاريخ أنها فضيحة.

زرع استبسال نصر بن خزيمة في قلوب العدو رعباً وهلعاً، فاستدعى يوسف بن عمر فارساً من فرسانه يقال له نائل بن فروة، وأعطاه سيفاً لا يمر بشيء إلا قطعه، فلما أبصر نائل نصراً ضربه على فخذه حتى قطعها، فضربه نصر حتى أرداه قتيلاً، وهنا يطوي نصر آخر صفحات الوفاء؛ ليترأسَ قافلةَ الاستشهاديينَ بعد عظيمِ تنكيلٍ بجيوشِ المجرمين، فلم يشفِ قتله يوسف بن عمر حتى بحث عن جثته وأمر بصلبها بجوار خشبة الإمام زيد عليه السلام؛ ليكون هو ومعاوية بن إسحاق رفيقي الإمام زيد (ع) في الاستشهاد والصلب والجنة، كما كانا رفيقيه في الدنيا.

القاسم بن كثير التنعي الحضرمي

القاسم بن كثير التنعي الحضرمي نسبة إلى حضرموت، فارس بقامة الشجاعة، ومقدام بحجم الاستبسال، وهو أوَّلُ شهيدٍ في المعركة، انتدبه الإمامُ زيد في لحظات المعركة الأولى لمهمة جليلة هي أشبه بمهمة الفداء، فحين فرض جيشُ بني أُمية حظرَ تجوالٍ على مدينة الكوفة، حتى يقطعوا سبل التواصل بين الإمام وأنصاره، كان لا بدَّ للإمام زيد أن يعلن لأنصاره عن بداية المواجهة، فكانت المهمة أن ينطلق فرسان الإمام

إلى أحياء الكوفة وأسواقها لينادوا على الناس ببدء المعركة ويكسروا الحظر المفروض من قبل جيش هشام، وهي بالطبع مهمةٌ تحفُّها المخاطر، فلم ير الإمام زيد أحداً جديراً بتلك المهمة إلا القاسم بن كثير، فخرج القاسم إلى أحياء الكوفة وأسواقها ونادى بشعار الثورة «يا منصور أمت»، وهو شعار رسول الله في معركة بدر، إنه العبث بالموت وعدم الاكتراث بالمخاطر في سبيل الأهداف النبيلة والغايات السامية التي تجسَّدت في أنصار الإمام زيد وإنه عمق الإيمان الراسخ بالله إذا ما تمكن من النفوس.

اعترضت القاسم بن كثير كتيبةٌ من فرسان العدو بقيادة جعفر بن عباس الكندي، فشدُّوا عليه فقتل من أصحاب القاسم رجل، ونالت القاسمَ جراحاتٌ حتى ارتثَّ، فأُخِذ جريحاً إلى دار الإمارة، فأمر يوسف بن عمر أن تضرب عنقه على باب القصر.

فخرجت ابنته تبكيه وتقول:

عين جودي لقاسم بن كثير
بدرور من الدموع غزير
أدركته سيوف قوم لئام
من أولي الشرك والردى والثبور
سوف أبكيك ما تغنى حمام
فوق غصن من الغصون نضير

لم يكن القاسم الحضرمي الوحيد الذي أخذ جريحاً فقتل، فقد أُخِذ ضرام بن عبدالرحمن وبه جراحة في كفه، فأمر يوسف بن عمر بضرب عنقه، كما أخذ عيسى بن عتبة وبه جراحة، فأمر به فضربت عنقه، وهكذا كانت سياسة هشام بن عبدالملك، فبدلاً من أن يأمر بمداواة الجرحى ويعتبرهم أسرى حرب، كان يأمر أن يجهز على كل جريح؛ ونحن نرى اليوم داعش وهي تقتل الأسرى، ثم نتساءل: مَن قدوتهم في ذلك؟! فلا نجد جواباً لذلك إلا أنَّهم استقوا هذا الإجرامَ من مدرسة داعش الأولى المتمثلة في بني أمية.

معمر بن خثيم

العلامة الراوي، والفاضل الفقيه معمر بن خثيم، من علماء العراق وفقهائها، وهو من رواة الحديث الموثوقين، ولقد جسَّد معمر بن خثيم العلم في ميدان العمل، فكان من أوائل المجاهدين بين يدي الإمام زيد، وهو من فرسان زيد ودعاته وكان رفيقه في الكوفة ورافقه إلى البصرة، ولقد بعثه الإمام إلى العلماء وإلى بعض المناطق يدعوهم إلى نصرته ويبين لهم أسباب ثورته، وكان هو وعبدالله بن الزبير الأسدي يُدخلان الناس على الإمام في مكان تخفيه في الكوفة قبل بداية المعركة.

عامر بن ربيع العذري

ومن رجال الوفاء رجل من عذرة، كان له مع الإمام زيد عليه السلام من عظيم الوفاء ما سطَّره التاريخ؛ فهو من قام إلى الإمام زيد عليه السلام، فقال: يا أبا الحسين أرأيت إن كنا على الحق ألست أعظمنا أجراً؟!.

قال: بلى، قال: أرأيت إن كنا على باطل ألست أثقلنا ظهراً؟!، قال: بلى، والذي لا إله إلا هو يا أخا عذرة قاتل فإنا والله لعلى أهدى الهدى، وإنهم لعلى أبطل الباطل، فسلَّ عامرٌ سيفه، وهو يقول:

نضرب عن زيد بكل صارم
ذي رونق يفري شئون الظالم

لست لكم ما كنت بالمسالم
يا نصرة الكفرة ذي المآثم
وجند عات ذي شفاة غاشم
أهل على الحبر ذي المكارم
وذي التقى والبر والمقاوم
أول من صلى لرب راحم
بعد النبي خير هذا العالم

ثم ضرب بسيفه وقاتل قتال الأبطال حتى نال وسام الشهادة رضوان الله عليه.

سلام بن المنير

سلام بن المنير من أنصار الإمام زيد عليه السلام وفرسانه الشجعان وخلص شيعته، وكان كاسمه «سلام على المؤمنين، ومنير لدروب أهل الوفاء»؛ خرج رضوان الله عليه بين يد الإمام زيد (ع)، وهو يرتجز:

أضربهم بالصارم الحذام
ضرب غلام أيما غلام
ضرب غلام ماجد قمقام
متوج بالجود والوسام
أشد شد الباسل الضرغام
على علوج نذل طغام
من أهل كوفان وأهل الشام
دون التقي السيد الهمام
زيد الحجا والبر والإقدام
ابن رسولٍ جا إلى الأنام
بالصدق من عند أولي الإنعام
لم يحفظوا إلاً ولا ذمام

القاسم الأزدي

أمر القائد الأموي الغشوم يوسف بن عمر بالبحث عن كل أنصار الإمام زيد (ع)، والنيل منهم بالحبس أو التعذيب أو القتل، كعقاب لهم على مواقفهم المشرفة، فكان ممن قبض عليهم القاسم الأزدي، فلما أحضر إلى مجلس يوسف بن عمر سأله يوسف: أكنت في من خرج مع زيد بن علي؟!

وقد ظن الطاغية يوسف أن أنصار زيد بن علي عليهما السلام يهابون الموت، أو ينكرون الفضيلة، فأجابه القاسم بكل فخر واعتزاز: نعم، فأمر الطاغية أن يُضرب بالسياط، فضرب حتى ظن أنه ميت، فقال له: يا يوسف ما تقول لربك إذا التقيتُ أنا وأنت عنده غداً؟! هل تُقتل نفسٌ إلا بنفس؟ ألست سامعاً مطيعاً لك على حجة تستحل بها قتلي؟ الله الله يا يوسف فإن القصاص غداً، فلم يزد كلامه الطاغية إلا عتواً، وجرأة على الله عز وجل، فصرخ في جنوده «اقتلوه اقتلوه»، فما زالوا به يضربونه حتى انتقل إلى ربه شهيداً رضوان الله عليه.

سلام الجعفي

سلام الجعفي أحد خلص أنصار الإمام زيد (ع)، وكانت له قصة قبل استشهاده، قصة قد تكون سبقت زمنياً ثورة الإمام زيد، لكنها بيان على عظيم تلك الثورة وسلامة منهجها، فيروى أنه رضوان الله عليه قال: قلت لأبي جعفر يعني الإمام الباقر: فداك أبي إني رجل أحبكم أهل البيت، فقال الإمام الباقر: رحمك الله، فقال سلام: ادع الله لي، فرفع الباقر يديه حيال الكعبة ثم قال: اللهم أحيه محيانا، وأمته مماتنا، واسلك به سبيلنا.

فلما كانت ثورة الإمام زيد عليه السلام خرج سلام الجعفي معه، فقاتل بين يديه حتى قتل رضوان الله عليه، فحقق الله رغبته، واستجاب لدعاء الإمام الباقر عليه السلام.

ربيعة بن حديد

لقد قدم ربيعة بن حديد نموذجاً فريداً للبصيرة في الجهاد في سبيل الله حين قام إلى الإمام زيد عليه السلام فقال: والله يا أبا الحسين لأقاتلن معك عدوك، فإن عدوك عدونا، ونحن والله أشد عليه حنقاً وعداوة، لما ارتكبوا من دمائكم، ومنعوا من حقوقكم، واستأثروا بالأمر دونكم، فنحن لهم مفارقون، ولأعمالهم مبغضون، فانهض بنا إليهم إذا شئت وعلى الله فليتوكل المتوكلون.

ثم نهض وجاهد جهاد الأبطال، وكان من الفرسان الشجعان، وهو يقول:

والله لا أرجع حتى أعذرا
أو أقتل المرء اللئيم الكافرا
ما كنت يا بن الطاهرين أغدرا
أو أسقي الصعدة مني أحمرا
من شيعة الكفر أرجّي الظفرا
وأنصر المتوج المطهر
ابن رسول الله ذاك الأزهرا
أفضل من هلل ربي الأكبرا
حتى أموت دونه وأقبرا

خباب السلمي

خرج الخباب السلمي مع الإمام زيد عليه السلام، وكان من فرسان العراق وأبطالها، وهو يقول:

إن تنكروني فأنا خباب
أذود بالسيف عن الأحباب
عن عترة التالي للكتاب
نبي صدق طاهر مجاب
معظم عند العلي الوهاب
خلفتموه يا بني الأوشاب
خلافة في معشر أياب
بني بنيه وبني الأصحاب
في أهله خلافة الذئاب
فأبشروا بالخزي والعقاب

حسان بن قايد البارقي

ومن أهل الوفاء حسان بن قايد البارقي، وهو الذي يقول:

لنا المصاص من صميم بارقي
أضرب فوق الرأس والمفارق
بصارم للهام منهم فالق
دون التقي ذي الحجى المصادق
وخير ذي سكت نعم وناطق
وخير من ينطق بالمناطق
أرجو رضا الله العلي الخالق
أضرب أنصار العتي المارق
جند كفور خاتر منافق
لست لكافريكم موافق

مواقف جماعية

لقد تعددت صور التضحية في أصحاب الإمام زيد عليه السلام، وأشرقت شمس العظمة من أنحاء الكوفة، وكأنَّ أنصار الإمام زيد (ع) أرادوا أن يوثقوا بمواقفهم الثمينة كل قيم الإنسانية ومعاني الوفاء، فكما كانت التضحية فردية فقد كانت جماعية أيضاً، فكان يخرج من الأسرة الواحدة الاثنان والثلاثة؛ لينصروا الإمام زيداً عليه السلام، ثم يستشهدوا بين يديه؛ وكان من أولئك العظماء الأخوة الثلاثة الذين جاهدوا واستبسلوا حتى نالوا الشهادة جميعاً، وهم: علي

عباد اللّه لا تقاتلوا عدوكم على الشك فتضلوا عن سبيل اللّه، ولكن البصيرة .. البصيرة ثم القتال،

ومحمد وبشر. لقد بخل التاريخ بالحديث عن هؤلاء الأخوة كما بخل عن غيرهم إلا بذكر أسمائهم. لكنها صورة كافية وافية شافية تحكي عظيم الوفاء وجليل الفداء.

ولم تكن هذه صورة وحيدة للعظمة. بل شهدت تلك الملحمة الجليلة أن يتقدم الأب والابن معاً، كما هو حال أبي حازم وابنه حازم. وكحال الحجاج ووالده اللذين حين لم يفلح العدو في قتلهما في المعركة. سارع لأخذهما بعد انتهاء المعركة، فقتلهما صبراً بجرم نصرة الإمام زيد (ع)، والثورة معه.

كما قدمت أسرة سالم العبسي اثنين من أبنائها، وهما: عوف وبشر؛ وعوف هو القائل في المعركة:

إن تعرفوني فأنا ابن عبس
أشجع من ليث حمى عن عرس
ليث هزبر الشدق خمر الخلس
يفترس الأعداء أي فرس
أفدي زيداً بأبي ونفسي
وطاري في وتالدي وعرسي
ياقوم جدوا في قتال النجس
فإنهم حقاً شرار الإنس

صميمُ إرادةٍ وعُنفوانُ ثباتٍ تقلدهما أصحابُ الإمام زيدٍ عليه السلام رغمَ قلتهم، وما كُلُ ذاكَ إلا حُب للهِ ولرسولهِ صلى الله عليه وآله وسلم، وطمعاً في نعيم أبديٍّ دونما اكتراث لشديدِ مُعاناةٍ جزموا بأنها لن تُقعدهم وبينَ أكُفهم أمثال علي والحسين وزيد، و يبقى ذلكَ وفاء لا تُجاريهِ أرتَالُ، وفداء لا تقوم له جبال.

عاقبة الظالمين

لم تطل الأيام بهشام وجلاوزته حتى جازاهم الله أعدل الجزاء. فلم تكن من العدالة الإلهية أن يترك ما فعلوه بالامام زيد وأصحابه من البشاعة والإجرام من دون عقاب، فالله عز وجل يقول: ﴿وَلاَ تَحْسَبَنَّ اللهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَومٍ تَشْخَصُ فِيهِ الأَبْصَارُ﴾، ويقول في آية أخرى أن عقاب الدنيا ما هو إلا مقدمات الانتقام، وأن الانتقام الحقيقي لا زال ينتظرهم في الآخرة، فيقول جل وعلا: ﴿ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾، وهذا ما حدث بالفعل؛ فقد ذكر المؤرخون أن عبدالله بن محمد العباسي المعروف بأبي العباس السفاح أخرج هشاماً من قبره، وأمر بضربه حتى تناثر وكان محنطاً مطلياً بالصبر، ثم صلبه ثم أحرقه، وذرى رماده كما فعل بالإمام زيد عليه السلام.

وقُتل يوسف بن عمر الثقفي وجعل في رجله حبل يجره الصبيان في شوارع دمشق، ثم قطع وسمِّر على أبواب دمشق. قال أبو غسان الثقفي: قال لي أهل الشام: رأينا يوسف بن عمر في هذا الموضع مقتولاً في مذاكيره حبل، وهو يُجَر.] تاريخ دمشق لابن عساكر ج٦٧/ ص١٢٧]

وأُخذ خراش بن حوشب. وهو قائد شرطة يوسف بن عمر، وهو الذي نبش قبر الإمام وأخرج جسده وصلبه. فضُرب بألف سوط، وشُق بطنه، ورمي للكلاب تأكل منه، ثم أحرق بالنيران.

ومن نماذج تعجيل العقوبة على الظالمين ما نزل بشخص آخر اسمه العلاء كان قد جاء بحزمة حطب عند إحراق الإمام زيد (ع)، فأعطي على ذلك دراهم، فقال: إني جئت بهذا أتقرب إلى الله، فما مضت عليه عشرون ليلة حتى رؤي وهو يحترق في بيت مع غلام كان يفسق به.[الأمالي الاثنينية. ص٦٣٠]

وهناك شخص اسمه زهرة بن سليم، وهو من وجه يوسفُ بن عمر برأس الإمام زيد معه إلى هشام بن عبدالملك. فلم يلبث زهرة هذا إلا مسافةً قصيرة، فما أن بلغ مضيعة ابن أم الحكم حتى رماه الله بمرض الفالج.[مقاتل الطالبيين. ص٩٧]

وهذا أحمد العامري يروي: رأيت عرزمة أخا كباشة الأسدي وكان من أبهى الرجال، وأحسنهم عيناً، فكان في كل يوم ينطلق إلى الكناسة، فيقعد عند الذين يحرسون خشبة زيد بن علي وكان هناك مجمع الأسديين. وكان يلتقط في طريقه سبع حصيات. ثم يجيء فيجلس في القوم. ثم يقول: هاكم في عينه. فيخذف زيد بن علي بتلك السبع الحصيات، قال الراوي: فوالله الذي لا إله غيره ما مات. حتى رأيت عينيه مرقودتين. كأنهما زجاجتان خصراوان. [الأمالي الاثنينية. ص٦٣٠]

حسب كل امرء ما اكتسب، وسيكفي اللّه الظالمين.

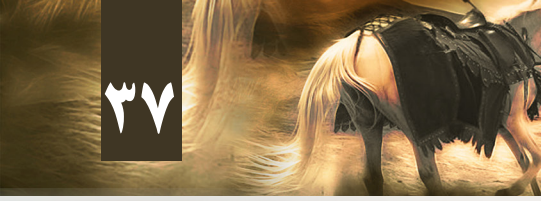

الوجه الحقيقي
لهشام بن عبدالملك الأموي

من أعظم ما ابتلي به الإسلام حكام بني أمية الطغاة وولاتهم المتجبرون، فقد تناسلوا وتناسخوا الشر والطغيان، وتنافسوا في الفحش والبغي، والظلم والإسراف، فكان كل خليفة أسوأ من سابقيه، وهكذا حتى تدحرجت الخلافة إلى طاغية غشوم، ومجرم ظلوم، يدعى هشام بن عبدالملك، وكان ذلك في عام ١٠٥هـ. وفي فترة خلافة هذا العتل الزنيم ثار الإمام زيد عليه السلام على دولته، وخرج ضد طغيانه، ووقف صارخاً في وجه جبروته وانحرافه.

ومن المهم - ونحن نريد التعرف على عظمة ثورة الإمام زيد (ع)، وأبعادها على المستوى الديني والإنساني- أن نقف لنقرأ حول شخصية هشام بن عبدالملك، ونتعرف إلى أي حد بلغ في ظلمه وبغيه وانحرافه عن تعاليم الدين الحنيف.

هشام بن عبدالملك بن مروان بن الحكم بن العاص تولى الخلافة في ٢٤ شعبان سنة ١٠٥هـ. وكانت وفاته بالرصافة في ٦ ربيع الآخر ١٢٥هـ. وقد حكى التأريخ أن هشاماً كان ظالماً، متغطرساً، مسرفاً، منتهكاً لأحكام الله، كما كان أحْولَ، خشناً، فظاً، غليظاً، يَجْمَع الأموال متخذاً لمال الله دولا، ولعباده خولا، ويستجيد الخيل حتى أقام الحلْبَة فاجتمع له فيها من خيله وخيل غيره أربعة آلاف فرس، ولم يُعْرَفْ ذلك في جاهلية ولا إسلام لأحد من الناس، وقد ذكرت الشعراء ما اجتمع له من الخيل، واستجاد الكُسَي والفُرَشَ، وعُدَد الحرب ولآمتها.

فحش وفجور

لم يكن هشام . كافأه الله . يُعِير مقدسات المسلمين أي اعتبار، يسمع يهودياً في مجلسه يسب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فلا يعترض عليه بكلمة، بل ينهر الإمام زيداً (ع) حين ينكر عليه، وقد بلغ به الحال من الغرور الذي استحوذ عليه أن خطب على منبر مكة، فتهدد بالقتل كلَّ من يأمره بتقوى الله.

ولم يكن خلفاء الدولة الأموية - بما فيهم هشام بن عبدالملك- يتحرزون من مخالفة الله في أوامره، وانتهاك حرمه، فقد كانوا يقتلون، ويأخذون أموال الناس، ويسطون على ممتلكاتهم، ومما اشتهر عنهم ولعهم بشرب الخمر ومعاقرته، حتى أن بعضهم صنع له بركة من الخمر، وكان هشام ممن يشرب الخمر كما يُروى في كتب التأريخ، وكان يدخل عليه المسلمون وهو سكران، وينشدهم الشعر فيطرب حتى يسقط من فوق سريره.

أحكام جائرة

كانت فترة حكم هشام بن عبدالملك حافلة بالمشاهد الظالمة، والأحكام الجائرة، وليس أدل على ذلك من الظلم الذي مارسه مع الإمام زيد (ع)، من قتله، وصلبه عارياً، وحمل رأسه في الأمصار، والطواف به في البلدان، ثم قتل كل من ناصره أو تعاطف معه من رجال ونساء بأبشع الصور، فقد كان يؤتى بالجرحى والأسرى من أنصار الإمام (ع) فيأمر بضرب أعناقهم، بل كان هشام فظاً متجبراً مع كل من خالفه في الرأي، أو الاعتقاد، فقد قام بقتل الجعد بن درهم في يوم عيد الأضحى من دون ذنب إلا اعتقاده في مسألة خلق القرآن بخلاف قول هشام، فأخذه هشام وأرسله إلى خالد القسري، وهو أمير العراق، وأمره بقتله، فحبسه خالد، فلما صلى العيد يوم الأضحى قال في آخر خطبته: انصرفوا وضحوا يقبل الله منكم، فإني أريد أن أضحي اليوم بالجعد بن درهم، ثم نزل وذبحه.

فلو كانت الأحكام كما حكم به أهل الجور والآثام، لما كان بيننا اختلاف، ولا استعدينا إلى الحكام

وبالصورة نفسها قتل غيلان الدمشقي. فقد ذكر المؤرخون أن غيلان كان يقول أن معاصي العباد منهم، وليست من الله، فأمر بجلده مع أحد رفاقه سبعين جلدة، ثم أمر هشام بإخراج ألسنتهما من أقفيتهما، فلم يلبثا أن ماتا وألقيا على مزبلة يراهما الناس مصلوبين.

وبتهمة أنْ نَظَمَ الشاعرُ الكميت قصيدةً في مدح أهل البيت (ع) أَمَرَ بقطع يديه ورجليه ولسانه.

لقد أسرف هشام في القتل، واسترخص دماء الناس، وكانت كل أحكامه في القتل تُرْتَجَل في المجلس من دون أي محاكمات عادلة أو شكلية، ومن أندر ما يقف عليه القارئ وهو يطالع في تأريخ هشام وأحكامه الجائرة، أن يجده أمر بقتل أحد الشهود لمخالفته لشهادات بقية الشهود.

ونختم هذه الفقرة بهذا الموقف الذي نجزم أن صاحبه لعن فيه عرقه وأصله، فقد روى التأريخ أن شاعراً من العجم قال قصيدة في مدح قومه (العجم) في مجلس هشام، فغضب هشام غضباً شديداً، ثم أمر برميه في بركة ماء حتى قارب على الموت، ثم أمر بنفيه من بلده وطرده إلى أرض الحجاز.

تعيين ولاته

هناك قصص كثيرة عن طبيعة تعيينه للولاة وعزلهم، من دون معايير تقوم على الصدق والنزاهة والكفاءة، فقد عين رجلاً من أجل أنه أهدى لامرأته قلادة أعجبته، وقد عزل والياً من أجل وشاية.

جرأة على الله

كان هشام يحاول أن يصبغ كل تلك الجرائم بصبغة الشريعة، ويسعى أن يرسخ في الرعية أن له من الله حصانة شرعية يمارس في ظلها كل ظلم وفحش من دون أن يؤاخذه الله، وهذا بلا شك تأسيس للاعتقاد الفاسد الذي يقول أن الخلفاء ظِلُّ الله الذي لا يجوز مخالفته، ولا انتقاده، ولا الخروج عليه، فقد خطب هشام حين ولي الخلافة، فقال: الحمد الله الذي أنقذني من النار بهذا المقام.[انساب الأشراف، ج٣/ ص١٤٧]

جهل بالدين

هل يستطيع العقل أن يتخيل حاكماً للمسلمين على أنفسهم وأموالهم، يمثل بزعمه ظل الله في الأرض، وهو جاهل لأبسط تعاليم الدين، فيذهب إلى الحج، لا يعلم شيئاً عن مناسكه، ولا يجيد منها فرضاً؟!

وهل يؤمَّن حاكمٌ بهذا المستوى من الجهل ليدير شؤون المسلمين، ويطبق فيهم شرع الله، وينفذ فيهم أحكامه؟! لقد كان هذا هو هشام بن عبدالملك، وليس جهله بأحكام الحج إلا مثالاً بسيطاً، وإلا فإننا نجزم أنه كان لا يعلم كثيراً من ضروريات الدين، ومن أين له أن يعلم بشرع الله؟ وقد نشأ على الخمر والمعاصي والظلم والقتل، في بيئة ملطخة بأنواع المعاصي والذنوب.

ثراء فاحش

في حين أن التأريخ يحكي عن معاناة شديدة كانت تعصف بالسواد الأعظم من المسلمين في تلك السنين المظلمة، والتي عبر عنها أعرابي في مجلس هشام بسنين «أكلت اللحم، وأتت على العظم»، فقد روى التأريخ مع تلك المعاناة صوراً عن ثراء الطاغية هشام، وعبثه، وغناه الفاحش، وكأنه أحد الفراعنة المترفين، فقد كان يجمع الأموال، حتى قيل: إنه جمع من الأموال ما لم يجمعه خليفة قبله.

فلم يكن ذلك الفقر وتلك الحاجة المنتشرة في أوساط الناس إلا نتيجةً طبيعيةً لممارسات هشام وولاته، وسياساتهم الإقصائية، واستحواذهم على الأموال، وما ذلك إلا مصداق لحديث رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من اتخاذهم مال الله دولا.

وقد حكى أحد الوافدين على هشام في وصف عرشه، فقال: دخلت عليه في دار قوراء مفروشة بالزحام وهو في مجلس مفروش بالرخام، وبين كل رخامتين قضيب ذهب، وحيطانه كذلك، وهشام جالس على طنفسة حمراء، وعليه ثياب خز حمر، وقد تضمخ بالمسك والعنبر، وبين يديه مسك مفتوت في أواني ذهب يقلبه بيده فتفوح روائحه.

ومع هذا الغناء الفاحش ترى الناس يفدون إليه وفيهم ذرية الصحابة، بعد أن أجهدهم العناء والخصاصة، فيمنعهم من مال الله، ويردهم صفر اليدين، في حين أنه يرصف الذهب على اسطوانة مجلسه وحيطانه، ويصنع منه أواني أكله، قال

البلاذري: قدم على هشام وفد وفيهم ابن عمار بن ياسر، فقال له هشام: من أنت؟ فأخبره. فقال: ترجو الصغير وقد أعياك والده

وفي أرومته ما ينبت العود

لا والله ما نال مني خيراً أبداً ما بقيت.

وفي جواب هشام هذا وتبريره لرد ابن الصحابي الجليل عمار بن ياسر وجه آخر من أوجه القبح الذي كان عليها هشام بن عبدالملك.

ومن مظاهر ثرائه وإسرافه في أموال الله ما رواه أصبغ بن الفَرج: لم يكن في بني مَرْوان من مُلوكها أعطرَ ولا ألبس من هشام، خَرج حاجًّاً فحَمل ثيابَ طُهره على ستمائة جَمل.

وقال الإمام المنصور بالله (ع) في الشافي: ولما علم [هشام بن عبدالملك] سيرة عمر بن عبدالعزيز في تراث سليمان وصرفه إلى بيت المال إلا ملابسه جعل مال الله ملابس، ونافس في الطراز حتى ضرب به المثل فقيل: طراز هشام، وقطع وقر عشرة آلاف بعير بزاً، ولم يدرِ أن الوليد بن يزيد يأتي لا يميز؛ حتى لقد تعسر عليهم كفنه.

مزاج فرعوني

روى المدائني عن يزيد بن الحارث قال: كان هشام وبنو مروان كلهم لا يكسون الناس الخز الأحمر والأصفر ويكسونهم ما وراء ذلك من الألوان، ويدخرون الأحمر والأصفر لكسوتهم. [أنساب الأشراف، ج٣/ ص١٣٧]

وهذه الرواية تكشف وجهاً قبيحاً لهذه الأسرة المسرفة، فلا يكفي أن يستغلوا كل ثروة المسلمين، ويلهفوها في جيوبهم، وخزاناتهم؛ لإشباع رغباتهم وشهواتهم، بل يفرضوا على الناس ما يلبسون، ويَصْطَفُوا لهم أضخم الأنواع، ويحرِّموها على سائر الناس؛ فأي عنجهية تلك، وأي تسلط ذاك؟!

تربية المجرمين

يفترض أن يكون الأب دالاً لأبنائه على الخير، ومربياً لهم على البر والصلاح، ولكنْ أنَّى لهشام أن يكون ذلك الأب وهو الغارق في الموبقات؟!

ولنقرب لكم صورة هشام في حكاية ذكرتها بعض كتب التأريخ، والتي تدل على أبوته، وتظهر طريقته في النصح لأبنائه؛ وذلك أن ولده سعيد بن هشام بن عبد الملك كان عاملاً لأبيه على حِمْص، وكان يُرْمَى بالنساء والشراب، فقَدِم حِمصيٌّ إلى هشام، فلقيه أبو جعد الطائي في الطريق، فقال له: هل تَرى أنْ أعطيَك هذه الفرس، فإني لا أعلم بمكانٍ مثلَها على أنْ تُبلِّغ هذا الكتابَ أميرَ المؤمنين، ليس فيه حاجة بمسألة دينار ولا درهم، فأخذها وأخذ الكتابَ، فلما قدم على هشام سأله: ما قِصة هذه الفرس؟ فأخبره، فقال: هاتِ الكتاب، فإذا فيه:

أبْلِغ إليك أميرَ المُؤمِنين فقدْ

أمدَدتَنا بأميرٍ ليس عِنِّينَا

عَوْراً يُخالف عمراً في حَليلتِه

وعند ساحته يُسْقَى الطِّلا دِينا

فلما قرأ الكتاب بعث إلى سَعيد فأشخصه، فلما قدم عليه عَلاه بالخَيْزرانة، وقال: يا بن الخبيثة، تَزني وأنت ابن أمير المؤمنين؟! ويلك! أعجزت أن تَفْجُر فجور قريش؟ أوَتدري ما فُجور قريش لا أمَّ لك؟ قتْلُ هذا، وأخْذُ مال هذا؛ والله لا تلي لِي عملاً حتى تموت.[العقد الفريد، ج٢/ ص١٦٥]

هذه قطرة من ظلم هشام، وما خفي وما تركناه أعظم وأطم، ولكم أن تتساءلوا كيف شُوِّه التأريخ وحُرِّفَت الحقائق؟ وكم حاولت السلطات وعلماء السلطان أن يصوروا هشاماً وبني أبيه على أنهم حمائم السلام، ونماذج الوداعة والبراءة؟

وكيف لمسلم يحمل روح المسؤولية أن يطيب له قرار أو يهدأ له بال؟! وهو يشاهد قمة المسلمين ورأس الهرم فيهم بهذا المستوى من السقوط والانحلال.

وهو ما عبر عنه الإمام الأعظم زيد بن علي عليهما السلام بقوله: ((والله ما يسعني أن أسكن، وقد خولف كتاب الله تعالى، وتحوكم إلى الجبت والطاغوت)).

إن أكثر من ترى عشقت نفوسُهم الدنيا، فالطمع أرداهم إلا القليل الذين لا تخطر على قلوبهم الدنيا،

عدد خاص بمناسبة ذكرى استشهاد الإمام زيد صادر عن الملتقى الإسلامي ١٤٤١هـ

ماذا لو وفى؟

عندما ننظر إلى السيرة العطرة للإمام زيد عليه السلام، ونقرأ عن أهداف ثورته النبيلة، نتساءل كيف لم يفِ الناس له بالبيعة؟! وقد عرفوا غايته، وسمعوا مشروعه المحمدي العظيم، حين قال: ((أيها الناس إن لكم علي أن لا أضع حجراً على حجر، ولا أكري نهراً، ولا أكثِّر مالاً، ولا أعطيه زوجة ولا ولداً، ولا أنقل مالاً من بلدة إلى بلدة حتى أسد ثغر ذلك البلد وخصاصة أهله بما يغنيهم، فإن فضل فضلة نقلتها إلى البلد الذي يليه، ولا أجمركم في ثغوركم فأفتنكم وأفتن أهليكم، ولا أغلق بابي دونكم فيأكل قويكم ضعيفكم، ولا أحمل على أهل جزيتكم ما يجليهم عن بلادهم ويقطع نسلهم؛ وأن لكم أعطياتكم عندي في كل سنة وأرزاقكم في كل شهر حتى تستدر المعيشة بين المسلمين فيكون أقصاهم كأدناهم)).

أفلم يكن يكفي من سمع هذا البرنامج الثوري من رجل كالإمام زيد عليه السلام أن يدافع عن أهداف هذه الثورة، ويجالد من أجل قيام الدولة التي أرادها هذا الإمام، وكيف لذلك السامع ألا يفي بهذه البيعة لابن بنت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، سليل الطهر والتقى، ومنهل الحق والهدى.

وحين نتساءل عن ماذا لو وفى له المبايعون ولم ينكثوا بيعته؟! فهنا يكفينا أن نجعل الأعمش - وهو من أعلام ذلك العصر- يجيب على هذا التساؤل: (ما كان في أهل زيد بن علي مثل زيد بن علي، ولا رأيت فيهم أفضل منه، ولا أفصح ولا أعلم، ولا أشجع، ولو وفى له من بايعه لأقامهم على المنهج الواضح).

هذا ما كان سيحدث بلا شك، ولكن الأمة المخذولة تأبى إلا أن تكون سداً في وجه المصلحين وكل من أراد أن يأخذ بيدها إلى مرافئ الخير والفلاح، فتلك هي سنة الأولين، وطريقة الآخرين، وسيرة سلكتها الأمم مع النبيين والمرسلين.

هذا عهدنا

يقول الإمام زيد بن علي عليهما السلام في إحدى رسائله:

فو الذي بإذنه دعوتكم، وبأمره نصحت لكم.. ما ألتمس أثرة على مؤمن، ولا ظلم لمعاهد.. ولوددت أني قد حميتكم مراتع الهلكة، وهديتكم من الضلالة، ولو كنت أوقد نار فأقذف بنفسي فيها، لا يقربني ذلك من سخط الله، زهد في هذه الحياة الدنيا، ورغبة مني في نجاتكم، وخلاصكم.. فإن أجبتمونا إلى دعوتنا كنتم السعداء، والموفورين حظ ، ونصيب .

عباد الله انصحوا داعي الحق، وانصروه إذا قد دعاكم لما يحييكم، ذلك بأن الكتاب يدعو إلى الله، وإلى العدل والمعروف، ويزجر عن المنكر.. فقد نظرنا لكم، وأردنا صلاحكم، ونحن أولى الناس بكم.

رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم جدنا، والسابق إليه المؤمن به أبونا، وبنته سيدة النسوان أمنا، فمن نزل منكم منزلتنا؟!

فسارعوا عباد الله إلى دعوة الله، ولا تنكلوا عن الحق، فبالحق يكبت عدوكم، وتمنع حريمكم، وتأمن ساحتكم.

وذلك أنا ننزع الجائرين عن الجنود، والخزائن، والمدائن، والفيء والغنائم، ونثبت الأمين المؤتمن غير الراشي والمرتشي الناقض للعهد؛ فإن نظهر فهذا عهدنا، وإن نستشهد فقد نصحنا لربنا، وأدينا الحق إليه من أنفسنا، فالجنة مثوانا ومنقلبنا، فأي هذا يكره المؤمن، وفي أي هذا يرهب المسلم؟!

وقد قال الله عز وجل لنبيه صلى الله عليه وآله وسلم: ﴿ولا تجادل عن الذين يختانون أنفسهم إن الله لا يحب من كان خوانا أثيما﴾[النساء:١٠٧].

وإذا بدت الخيانة، وخربت الأمانة، وعمل بالجور، فقد افتضح الوالي.. فكيف يكون إمامـ على المؤمنين من هذا نعته، وهذه صفته؟!

اللهم قد طلبنا المعذرة إليك، وقد عرفتنا أنك لا تصلح عمل المفسدين، فأنت اللهم ولينا، والحاكم فيما بيننا وبين قومنا بالحق.

قصيدة (الإمام زيد بن علي)

أمير شعراء اليمن الحسن بن علي بن جابر الهبل

لَمَّا رَأيتُ النَّاسَ قَدْ أَضْحَوا عَلَى
جُرُفٍ مِنَ الدِّينِ المُلَفَّقِ هَارِ

تَابَعْتُ آلَ المُصطفى مُتَيَقِّناً
أنَّ اتِّباعَهُمُ مُرَادُ البَّاري

وَقَفوتُ نَهْجَ أَبي الحُسَينِ مُيَمِّمَاً
مِنهُ سبيلاً وَاضِحَ الأنْوارِ

خَيرِ البَريَّةِ بَعْدَ سِبْطَي أحمدٍ
مُختارِ آلِ المُصطفى المُختارِ

وَحبيبِ خَيرِ المُرْسَلينَ وَمَنْ غَدا
في آلِ أحَمَدَ دُرَّةَ التِّقْصَارِ

مُقْري الرِّمَاحِ السمهريةِ والظِّبا
إذْ ما لَهُنَّ قِرَىً سِوَى الأعمارِ

والبَاذِلِ النَّفْسَ الكريمةَ رافعاً
لِمَنارِ دِينِ الوَاحِدِ القَهَّارِ

لَيْثِ الشَّرى حَيثُ الصَّوارمُ والقَنا
تَسْعَى بِكأسٍ لِلمنونِ مُدَارِ

يُشجيهِ ترجيعُ القُرانِ لَدَيهِ لا
نَقْرُ الدُّفُوفِ وَرَنَّةُ الأَوتَارِ

أَأَبا الحسينِ دُعاءُ عبدٍ مُخْلِصٍ
لَكَ وُدَّهُ في الجَهْرِ والإسرارِ

طَوراً يَصُوغُ لَكَ المَديحَ وتارةً
يَبكي عَليكَ بمَدمَعٍ مِدرارِ

هَيْهَاتَ أُقْصرُ عَن مَدِيحِكَ دَائماً
مَا العُذْرُ في تَركي وَفي إقصاري

وُدِّي على طُولِ المَدى مُتَجَدِّدٌ
وَفَرائدُ الأشعارِ فيكَ شِعاري

فاشْفَعْ بِفَضْلِكَ في القيامةِ لي وقلْ
هَذا الفتى في ذمَّتي وجواري

ما ضَرَّنا أن لا نَرى فَنَزورُها
إذْ أنتَ بينَ جَوانحِ الزُّوارِ

إنَّ الأُلى جارَوكَ في أمدِ العُلى
خَلَّفْتَهُمْ في حَلْبَةِ المِضْمارِ

وَحَمَيتَ سرحَ الدِّينِ منكَ بعزمةٍ
تُغْنِيكَ عن حَمْلِ القنا الخطَّارِ

شَقِيَتْ أُمَيَّةُ سوفَ تلْقى ربَّها
يومَ القيامةِ خُشَّعَ الأبصارِ

ماذا لآلِ أُمَيَّةٍ عُصَبِ الشَّقا
عندَ النَّبيِّ مُحَمَّدٍ مِنْ ثَارِ

ظَفَرَتْ بِقَتْلِ ابنِ النَّبيِّ وإنَّما
ذَهَبَتْ بِخزيٍ ظَاهِرٍ وبَوَارِ

يا عُصْبةَ النَّصبِ التي لم يُثْنِها
عن قَتلِ أهلِ البيتِ خوفُ البَّاري

حتَّى متَى آلُ النَّبي مُحَمّدٍ
تُمْنَى بِقَتلٍ مِنكُمُ وإسارِ

أَحْرَقْتُمُ بالنَّارِ ظُلْماً نَجْلَ مَن
قَدْ جَاءَ يُنْذُرُكُم عذابَ النَّارِ

وَضَرَبْتُمُ بَعْدَ الحَريقِ رَمَادَهُ
وَذَريتُموهُ في الفُراتِ الجاري

أَسَفِي عَلَيهِ كَمْ أُوَارِي دائِماً
مِنْ كَرْبِ أنفاسٍ وَحَرِّ أَوَارِ

صَلَّى وَسَلَّمَ ذُو الجَلالِ عليهِ بعـ
ـدَ مُحَمَّدٍ والعِتْرَةِ الأطهارِ